هذا هو الإسلام

الدكتور شوقي أبو خليل

هكذا يكتبون تاريخنا

يوحنا الدمشقي أنموذجاً





هكذا يكتبون تاريخنا

يوحنا الدمشقي أنموذجاً

الدكتور شوقي أبو خليل

هكذا يكتبون تاريخنا

يوحنّا الدِّمشقي أُنموذَجاً



آفاق معرفة متجدّدة

هكذا يكتبون تاريخنا: يوحنا الدمشقي أنموذجاً/ شوقي أبوخليل .- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٢٨ص ؛١٧ سم.

١- ٩٥٦ خ ل ي هـ ٢- العنوان ٣- أبو خليل

مكتبة الأسد

الموافقة على الطباعة رقم: ٩٩٣٨٩ تاريخ ٢٩/ ٦ / ٢٠٠٨م

المحتوى



حاضنة اللغة العربية
دار الفكر - دمشق - برامكة
٣٠ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

هذا هو الإسلام

هكذا يكتبون تاريخنا

د. شوقي أبو خليل

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٢,٠١٣
الرقم الدولي: ISBN: 978-9953-511-64-1
التصنيف الموضوعي: ٩٥٦ (تاريخ العرب والإسلام)
١٢٨ص، ١٢ × ١٧ سم
الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م

مُقَدِّمَة

بسم الله، والحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد..

فقد وقع بين يديَّ كتاب عنوانه: (منصور بن سرجون التَّغلبي، المعروف بالقدِّيس يوحنا الدِّمشقي، أو الفتح الإسلامي السَّهل لمدينة دمشق وأسبابه)، تأليف الإكسرخوس جوزيف نصر الله، نقله بتصرُّف إلى العربيَّة الأرشمنديت أنطون هبِّي، فبدأت بقراءته، ولفت نظري في صفحاته الأُولى أنَّ المؤلِّف يكتب دون توثيق أو عزو إلى مصادر التَّاريخ العربي الإسلامي المتعارف على صدقها ودقتها، والتي لابدَّ من اعتمادها ليكون البحث علمياً صحيحاً من الناحية التَّاريخيَّة، فهي معين تاريخنا، وفوجئت بأنَّ المؤلِّف على الرَّغم من إغفاله لأوَّل بدهية في كتابة التَّاريخ -

أيّ تاريخ - فإنَّه يدَّعي أن المؤرِّخين المسلمين أغفلوا ذكر ما سيورده في كتابه، وتجاهلوا الأحداث التي سيكتبها في كلِّ كتبهم، فتساءلت: فمن أين جاء بما كتبه إذن، وهو المتوفى سنة ١٩٩٣م؟

وبعد إتمام قراءة دارس متفحِّص؛ تبيَّن لي يقيناً أنه يكتب خيالاً توهَّمه، ويقلب حقائق تاريخنا، ويحلم ويتخيَّل، ليبرر هزيمة الرُّوم النكراء والحاسمة على يد الفاتحين المسلمين، فالأمر هوى في نفس المؤلِّف، أجَّجه حقده على الفاتحين.

لقد سير الأحداث - خيالاً - بما يحفظ لقومه ماء وجههم، لا حسب ماهيّاً الفاتحون المنتصرون وخطَّطوا، ولا وفق ما تمليه عليهم عقيدتهم من تسامح ورحمة، ودليل هواه كي لا نقع بما وقع المؤلِّف فيه، ولا نذكر التَّوثيق أو الدَّليل، قوله في الصَّفحة ٢٦: «فانهزم البيزنطيُّون، وعاث المنتصرون في البلاد فساداً وخراباً».

ودليل حقده على الفاتحين وصفه المتكرِّر لهم

بأنَّهم: البدو الرُّحَّل [الصَّفحة ٢٧]، وهؤلاء السُّذَّج [الصَّفحة ٤٣]، والقراصنة [الصَّفحة ٧٦]..

ودليل هدفه في حفظ ماء وجه قومه المنهزمين؛ تكراره أنَّ سبب انهزام الرُّوم البيزنطيِّين أمام جيش المسلمين الفاتحين أنَّ الرُّوم جمعوا جيوشهم «بسرعة على عجل [الصَّفحة ٢٦]»، «أمَّا هرقل، فقد أسرع وحشد في سورية الشَّمالية جيشاً لا تجانس فيه، ولا وحدة بين أفراده، وقليل التَّدريب العسكري [الصَّفحة٤٤]».

والغريب ادعاؤه أنَّ السُّوريين المسيحيِّين العرب ألَّفوا فرق الجيش الأُموي، وعلى عاتقهم وسواعدهم كانت الفتوح زمن بني أُميَّة، وخلاصة القول: إنَّ منصور بن سرجون، المعروف بالقدِّيس يوحنا الدِّمشقي، هو الذي سيطر على الخلافة الأُمويَّة، وسيَّر أحداثها وسيطر على كلِّ أمورها الاقتصاديَّة (بيت المال بيده)، والعسكريَّة (الفتوح براً وبحراً)، والاجتماعيَّة، حيث «البثت سورية بلداً مسيحيّاً، وحافظت سورية على طابعها كبلد مسيحيّ حتَّى نهاية الحقبة الأمويَّة [الصَّفحة ٦٢]»..... إلخ.

اتَّصلت هاتفيّاً بالأُستاذة الدكتورة نجدة خماش، لأنَّ اختصاصها العصر الأموي، وكتَبَتْ: (إدارة الولايات في العصر الأُموي)، و(الشَّام في صدر الإسلام)، بتوثيق ومنهج علميٍّ أكاديميٍّ، وسأَلتها: هل مرَّ معك ولو في مرجع واحد، أنَّ جيوش الفتح في زمن بني أُميَّة كانوا من المسيحيين؟ فأجابت: أعوذ بالله، من قال هذا؟ فقلت لها: كفتني، والله إنِّي لا أشكُّ في معلوماتي ودراستي لتاريخنا العربي الإسلامي، ولكن وفوق كل عالم عليم، أردت الأُنس برأيك[١].

وتذكرت حينها، ابن العبري، غريغوريوس الملطي[٢] وكتابه (تاريخ مختصر الدُّول)، ألَّفه بالسُّريانيَّة مطوَّلاً، وحشاه ما حشاه من أكاذيب

(١) واتَّصلت بي مشكورة صباح الأحد ١٥/٦/٢٠٠٨ لتقول: ديوان العطاء، صار اسمه ديوان الجند (ديوان المقاتلة) في العصر الأموي، ولا يسجل فيه إلّا المسلم، فجزاها الله خيراً.

(٢) ولد ابن العبري عام ١٢٢٦م في مدينة ملطية، وتوفّي عام ١٢٨٦م في مدينة مراغة من أعمال أذربيجان، أبوه كان يهودياً ثم تنصَّر، فعُرِف بابن العبري.

وافتراءات وضلالات، ولما قيل له: اكتبه بالعربيَّة، خجل من نفسه وهواها، فقدم (المختصر العربي) لكتابه المطوَّل بالسُّريانيَّة، ولضحالة الكتاب وسخافته، طُبع بالعربيّة دون اسم لدار ناشرة، ولا تاريخ، ولا محقِّق، فلا ذاتيَّة للكتاب، أو متبنٍّ له، لأنَّ ما جاء فيه ادعاءات لا تنطلي على من درس تاريخنا العربي الإسلامي، واطَّلع عليه من مصادره الموثَّقة، وهذا ما جرى من كتاب (منصور بن سرجون التَّغلبي، المعروف بالقديس يوحنا الدِّمشقي..) فقد نقله إلى العربية (بتصرُّف) الأرشمنديت أنطون هبِّي، فلم هذا (التَّصرُّف) والكتاب مئة وثمان وخمسون صفحة من القطع الصَّغير؟!

إنَّ الإكسرخوس[١] جوزيف نصر الله لو وثَّق وعزا لاحترمنا ما قدَّم واعتمدناه، ولكنه كتب موضوع إنشاء أفصح عمَّا يجيش في نفسه، وتتلاطم أمواجه تجاه

(١) الإكسرخوس: مرتبة أرثوذكسيَّة بين الأرشمنديت والمطران، وتعني: حامل الصَّليب الكريم.

الطَّرف المنتصر، علماً أن تاريخنا الإسلامي تميَّز عن غيره من تواريخ العالم بالتَّوثيق، فالخبر رواه فلان عن فلان عن فلان، وإن تساءل أحدنا قائلاً: وما يدريني بعدالة (بصدق ونزاهة) فلان أو فلان أو فلان؟! جاء الجواب: عِلم آخر، قائم بذاته انبثق عن علم مصطلح الحديث، هو علم الجرح والتَّعديل، علم عدالة الرِّجال ومعرفة صادقهم (الثِّقة)، من المطعون بعدالته (الكذَّاب).

وخطَّة عرض أكاذيب كتاب (منصور بن سرجون التَّغلبي، المعروف بالقدِّيس يوحنا الدِّمشقي، أو الفتح الإسلامي السَّهل لمدينة دمشق وأسبابه): تمهيد يضمُّ مختصراً مكثَّفاً - بعد هذه المقدِّمة - فيه ومضات موثَّقة عن تاريخ بني أُميَّة، يتلوه عرض متسلسل لما قدَّمه الإكسرخوس جوزيف نصر الله، ليلمس القارئ جلَّ خطله، قبل قراءة التَّعليق على ما كتب في كتابه المذكور، الَّذي كانت طبعته الأولى باللُّغة الفرنسيَّة في ١٤ أيلول ١٩٥٠م، وترجم إلى العربيَّة (بتصرُّف) عام ١٩٩١م، والمؤلِّف - جوزيف نصر الله

- وُلِد في النَّبك[1] عام ١٩١١م، ودَرَس في القدس في معهد القدِّيسة حنَّة للفلسفة واللَّاهوت، وفي عام ١٩٥٠م عُيِّن راعياً لكنيسة الرُّوم الكاثوليك في باريس، وبقي فيها حتَّى وفاته عام ١٩٩٣م، ودُفِن في النَّبك مسقط رأسه.

فإلى مضمون الكتاب، والرَّدِّ عليه بتوثيق، لندرك كيف يكتبون تاريخنا، ويجعلون من الحبَّة قُبَّة، وتعمى أبصارهم عن القبَّة لهوًى في أنفسهم ومآرب تدفعهم إلى اختلاق الأكاذيب، ومن حقِّنا المطالبة بالتَّوثيق، أمَّا مواضيع الإنشاء الخياليَّة، والرِّوايات المتوهَّمة، فمن واجبنا رفضها، ولا نرفضها إلَّا بدليل، ومحاكمة عقليَّة، وأخذ الأُمور بمنطق وتحليل يقبله العقل.

وإنَّني أُوجِّه ما جاء من تصويبات وردود في هذا الكتاب: (منصور بن سرجون التَّغلبي المعروف بالقدِّيس يوحنا الدِّمشقي، أو الفتح الإسلامي السَّهل

(١) النَّبك: بلدة في منتصف الطَّريق بين دمشق وحمص، على بعد ٨٠كم شمال دمشق.

لمدينة دمشق وأسبابه)، تأليف الإكسرخوس جوزيف نصر الله إلى كلٍّ من يحاول نشر هذه الأفكار المشوَّهة المفترية على تاريخنا العربي، دون دليل أو برهان، ولا أتوجَّه مطلقاً في خطابي إلى المسيحيِّين الموضوعيِّين، الذين لا يرضون بمثل هذه الكتابات التي تسيء إليهم أوَّل ما تُسيء، وفتْحُ باب الأُخوَّة والتَّسامح، والعيش المشترك بهناءة وطمأنينة، والاحترام المتبادل، والاعتراف بالآخر، والحوار الهادئ العلمي العقلاني أَوْلى وأجدى.

فمن كتب هذا الكتاب؛ ماذا قدَّم لأُمتنا من حقائق؟

والَّذي ترجمه ويحاول نشره، ماذا قدَّم لأمَّته من فائدة تذكر؟

على كلٍّ حال، هكذا يكتبون تاريخنا.

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً.

دمشق الشَّام ١٤ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ

١٨ تموز / يوليو ٢٠٠٨م — الدكتور شوقي أبو خليل

تمهيد

اتّسمت فتوح المسلمين بروح إنسانيَّة رحيمة، ودليل ذلك وصيَّة الصِّدِّيق لجيش أُسامة قبيل توجهه إلى الشَّام، حيث قال ﷺ: «يا أَيُّها النَّاس، قفوا أُوصيكم بعشر، فاحفظوها عنِّي: لا تَخُونوا ولا تغلُّوا[1]، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً[2] ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بعيراً إلَّا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطَّعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا

(١) الغِلُّ: الغِشُّ أو الضِّغن والحِقْد، والإغلال: الخيانة والسَّرقة الخفيَّة، (اللِّسان: غلل).

(٢) عقر النَّخلة: قطع رأسها، (اللِّسان: عقر).

اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً، اندفعوا باسم الله»[١].

أمَّا عمر بن الخطَّاب ﷺ، فوصاياه لجنده مشهورة، منها:

كتب ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «ونَحِّ منازلهم وجنودك عن قُرى أهل الصُّلح والذِّمَّة، فلا يدخلها من أصحابك إلَّا من تثق بدينه، ولا يرزأ[٢] أحداً من أهلها شيئاً، فإنَّ لهم حرمة وذمَّة، ابتُليتم بالوفاء بها، وابتُلوا بالصَّبر عليها، فما صبروا لكم وفُّوا لهم»[٣].

ومرَّ ﷺ في أرض الشَّام بقوم مجذومين[٤] من النَّصارى، فأمر أن يعطَوْا من بيت مال المسلمين، وأن يجري عليهم القوت بانتظام[٥].

---

(١) الطَّبري ٣/ ٢٢٦، الكامل في التاريخ ٢/ ٢٢٧.
(٢) رزَأه مالَه: أصاب من ماله شيئاً، (اللِّسان: رزأ).
(٣) نهاية الأرب ٦/ ١٦٩.
(٤) جذم: قطع، والجُذَام من الدَّاء معروف لتجذُّم الأصابع وتقطُّعها، (اللِّسان: جذم).
(٥) فتوح البلدان، البلاذري ١٣٥.

ولما طُعِنَ ﷺ، مات وهو يوصي بأهل الذِّمَّة «فإنَّهم ذمَّة نبيِّكم»، وهذه ليست وصيَّة للمعاملة بالحسنى، بل بالرِّفق، لأنَّ الإسلام لم يعرف في حياته شعار «ويل للمغلوب من الغالب».

لقد عامل الخلفاء الرَّاشدون أهل الذِّمَّة معاملة حسنة، وتابع الأُمويون سياسة حسن معاملة أهل الذِّمَّة، وتجلَّت في عهد الأُمويِّين خاصَّة ممارسة أهل الذِّمة لشتَّى الحقوق الَّتي تجعل منهم رعايا عاملين في الدَّولة، مع احترام حرِّيَة دينهم[١].

وقرَّب معاوية النَّابهين من أهل الذِّمَّة، مستفيداً من خبرتهم، خصوصاً إذا كان يتقن عمله؛ موظَّفاً، طبيباً، كاتباً.

وذكر الجهشياري[٢]:

كتب زادان فرُّوخ لزياد بن أبيه.

وأسطفانوس لعبد الرَّحمن بن زياد.

---

(١) إدارة الولايات في العصر الأُموي ٣٥٠.
(٢) الوزراء والكُتَّاب ٢٩، ٣٤، ٤٨، ٤٩.

وابن البطريق لسليمان بن عبد الملك.

وتاذري بن أسطين لهشام بن عبد الملك.

وبعد تعريب الدَّواوين زمن عبد الملك بن مروان، فإن من أتقن العربيَّة من الكُتَّاب النَّصارى بقي في خدمة الدولة، ففي مصر بقي ميناس وفيلوخينوس وأثناسيوس الرُّهاوي[1].

معاوية ﷺ أحد الرِّجال المعدودين في تاريخنا العربي الإسلامي[2]، الَّذين قادوا الأُمة وخدموها بحنكة ووعي وسياسة مثاليَّة، فلم يترك معضلة إلَّا وجعل لها حلاً مثالياً بأناة وحلم، لم ينعزل عن المسلمين، بل كان يستشيرهم ويُصغي لنصحهم، وأولى القضاءَ والتعليمَ عناية خاصة، وإذا صَلُح القضاء وصَلُح التَّعليم صلحت الأُمَّة.

(١) يذكره الجهشياري في (الوزراء والكُتَّاب ٣٤) باسم يناس بن خمايا من أهل الرُّها.

(٢) انظر لترجمته الصحيحة: الطبري ٦/ ١٧٣، البداية والنِّهاية ٨/ ١١٨، الكامل في التَّاريخ ٣/ ٢١٢، مختصر تاريخ دمشق ٢٤/ ٤٠٣، عيون الأخبار ١/ ٨، دول الإسلام ١/ ٥٣.

قام بما يمليه عليه دينه خير قيام، مع حرص على شعار الإسلام، يؤدِّي صلواته، ويُلْزِم النَّاس على أداء الصَّلوات في أوقاتها، وعدم تخلُّفهم عن حضور الصَّلاة جماعة في المسجد، ومآثره في البناء والإعمار كثيرة، فالأعمال الإنشائيَّة عمَّت رقعة الدولة كلِّها، حواضرها ومناطقها النَّائية، كخزّانات المياه (البِرَك) والأقنية والحمامات والمساجد، أجرى بمكَّة عيوناً، واتخذ لها أخيافاً[1]، ورصف شوارع المدينة المنوَّرة بالحجارة، وبنى مرافق عامَّة، وحصناً لأهلها، وأجرى عيني الأزرق وكاظمة إلى بيوت أهل المدينة، مع إرسال الأطعمة إليهم، خدماتٌ جليلة لا يقوم بها إلا مسلم صادق الإسلام.

لقد كساه رسول الله ﷺ قميصاً، فلبسه لبسة ثمَّ رفعه، وقلَّم ﷺ أظفاره، فأخذ القلامة فجعلها في قارورة، فلمَّا حضرت معاوية الوفاة، جمع ولده وأهل

(١) الخَيْفُ: ما ارتفع من مجرى السَّيل وانحدر عن غلظ الجبل، والجمع أخياف وخُيُوف، (مختار الصحاح).

بيته، ثمَّ قال لأم ولده: ما فعلت بوديعتي التي أودعتكيها؟ قالت: هي عندي، قال: ائتيني بها، قال: فجاءت بسفط مقفل مختوم عليه، قالت: فخلناه فيه جوهر فَفُتِحَ، فإذا فيه ثلاثة أثواب، فقال: هذا قميص رسول الله كسانيه، فقلت له: يا رسول الله، هب لي الرِّداء الذي عليك، قال: يا معاوية إذا ذهبت إلى البيت بعثت به إليك، فبعث به إليَّ، وهذا إزاره كسانيه. وأخذت من شعر رأسه ولحيته، فقلت: يا رسول الله هب لي هذا الشَّعر، قال: هو لك، فهو مصرور في طرف الرِّداء، فإذا مِتُّ فألبسوني قميص رسول الله ﷺ، وأزروني بإزاره، وأدرجوني في ردائه، وخذوا هذا الشَّعر فاحشوا به في شدقي ومنخري، وذروا سائره على صدري، «وقطعوا تلك القلامة واسحقوها، واجعلوها في عينيَّ»[١]، وخلُّوا بيني وبين أرحم الرَّاحمين[٢].

---

(١) الطَّبري ٣/ ٢٦٢.

(٢) وصايا العلماء، أبو سليمان محمد بن عبد الله الرَّبعي ١/ ٨٥.

أمَّا عن سهولة الفتح وسرعته، فيرى الباحثون بالدَّليل أنَّه ما كان بسبب اختلاف مذهب السُّكان ومذهب بيزنطة، «وهكذا نرى أنَّه من العسير أن يطمئن الإنسان إلى أنَّ الخلاف المذهبي بين أتباع الكنيسة السُّورية المونوفيزية التي تؤمن بأنَّ للمسيح طبيعة إلهيَّة واحدة، والكنيسة البيزنطيَّة التي تؤمن بما أقرَّ مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م، من إقرار طبيعتين للمسيح، الطبيعة الإلهيَّة، والطبيعة البشريَّة، كان له أثر في الترحيب بالمسلمين، وتسهيل مهمتهم، أو الميل إليهم، وأنَّ العداء استفحل إلى أن يفسح المجال لدين جديد، أقلُّ ما يوصف به أنَّه لا يرتضي المذهبين معاً، وإنما كان يحل المسيح عليه السَّلام محلَّ الإيمان بنبوَّته وكتابه، ولكنه يجرِّده من ألوهيته بطبيعتها أو بطبيعتيهما كلتيهما، فلا يرى فيه غير ما يرى في محمَّد بشراً رسولاً، وصحيح أنَّ الإسلام قد أتاح لهؤلاء النَّصارى قدراً من الحرية لم يجدوه عند البيزنطيِّين، ولكن هل كان نصارى العرب يعرفون مسبقاً كيف سيسير المسلمون بهم، وكيف سيعاملونهم؟ إنَّ من

واجبنا ألا ننسى التَّفريق بين النَّظر إلى الأُمور قبل وقوعها، وبين النَّظر إليها بعد أن تقع.

لقد دخل الإسلام بلاد الشَّام فلقي من مقاومة النَّصارى مثل ما لقي من مقاومة العرب على اختلاف من البواعث، وتباين في الأغراض»[1].

وفي اليرموك - المعركة الحاسمة في فتوح بلاد الشَّام - كان مع جيش بيزنطة من العرب النَّصارى اثنا عشر ألفاً عليهم جبَلة بن الأيهم[2].

وعدد من الصَّحابة كان لهم أثرهم في الشَّام في الفترة الرَّاشدة، والفترة السُّفيانيَّة، وما أكثر الصَّحابة الذين اشتركوا في الفتح من المهاجرين والأنصار، وقد بلغ عددهم - وفق ما ورد في كتاب الطَّبقات - مئة وثلاثة عشر صحابياً، وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصَّحابة مجاهدين، وتوزُّعهم في الأجناد، دور كبير في إرساء قواعد الدِّين، وتفقيه النَّاس،

(١) الشَّام في صدر الإسلام ٧٠.

(٢) البداية والنِّهاية ٧/ ٥.

وتعليمهم دينهم وسننهم، فكانوا أساتذة لمن خلفهم، وقد تفقَّه معظم أفراد الطَّبقة الأُولى من التَّابعين في الشَّام، على يد عبادة بن الصامت، وأبي الدَّرداء (عويمر بن عامر)، ومعاذ بن جبل[1].

وانتشرت المساجد في بلاد الشام، وأصبحت دور العلم في العصر الأُموي، والمراكز التي يتدفق عليها النَّاس طلباً لسماع الحديث.

وبالإضافة إلى المكانة التي احتلها الصحابة وقادة الفتوح وأبناؤهم في بلاد الشَّام، فإن معاوية أدرك بثاقب بصره منذ أن كان والياً على الشَّام مدى الفائدة السِّياسيَّة التي يجنيها من مصاهرة قبيلة كلب، أقوى القبائل القضاعيَّة بالشَّام، وأكثرها عدداً، فاختار له ميسون بنت بحدل الكلبي، الَّتي أنجبت له ابنه يزيد، وقد حققت الأحداث بعدئذ سداد نظرة معاوية، إذ كان

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٢٩٠ و٣٤٣، ٧/ ٢١٣، وآخر من توفِّي من الصَّحابة رضوان الله عليهم في الشَّام عبد الله بن بُسر المازني عام ٨٨هـ، وهو ابن أربع وتسعين سنة، (أسد الغابة ٣/ ١٨٦، الإصابة ٢/ ٢٨٢).

لقبيلة كلب اليد الطُّولى في تأييد خلافة يزيد، وفي تثبيت دعائم الحكم الأُموي في الشَّام[1].

ووقفت القبائل العربيَّة في الشَّام كلُّها إلى جانب معاوية في معركة صفِّين، قيسيَّة ويمانية وقضاعيَّة[2].

أمَّا في مجال القضاء فقد جعل معاوية الأولوية للصحابة والتَّابعين من الفقهاء، أمَّا قادة الصَّوافي والشَّواتي فكان يعينهم حسب كفاءاتهم القيادية دون النَّظر إلى انتماءاتهم القبليّة، وسار يزيد على خطا والده في تعيين ولاة الأجناد من سادات القبائل[3].

وقد أدرك المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشَّام، أن أمان النَّاس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في نفوس السُّكان، وأن يملأ عليهم آفاقهم حتى يعيشوا في أجواء مسالمة لا يفسدها الخوف والقلق، وحين تتوافر لهم هذه الأجواء،

(١) الشَّام في صدر الإسلام ١٠١.
(٢) الأخبار الطِّوال ١٧٢.
(٣) الشَّام في صدر الإسلام ١٠٤.

فإنما تتوافر لهم الثِّقة بأصحاب الدعوة، والإعجاب بما يؤمنون به، وقد يكون الإعجاب طريقاً للمشاركة والوحدة[1]، و(العهدة العمريَّة) شاهد كافٍ على سماحة الإسلام وعدالته.

وقبل إيراد نصِّ (العهدة العمريَّة) نذكِّر بأن عمر رضي الله عنه لمَّا حان وقت الصَّلاة، لم يقبل أن يصلِّي داخل الكنيسة، حفاظاً عليها، وضماناً لبقائها، ولكي لا يقال: هنا صلّى عمر، وسنجعل مكان صلاته مسجداً، فخرج رضي الله عنه ليصلِّي بجوارها، حيث بُني مسجد عمر، الذي تعالت مئذنته وسمقت عالية، بجوار برج الكنيسة.

أمّا نصُّ (العهدة العمريَّة) فهو:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياءَ[2] من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم،

(١) الشَّام في صدر الإسلام ١٢٧.
(٢) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، ومعناه: بيت الله، (معجم البلدان ١/ ٢٩٣).

وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها، أنَّه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يضارَّ أحد منهم..

وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمَّة رسوله، وذمَّة الخلفاء، وذمَّة المؤمنين.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة»[١].

وحافظ خلفاء بني أُمية على هذا العهد (العهدة العمرية) نصاً وروحاً أينما وصلت فتوحاتهم، فسلمت كنائس المسيحيِّين وفقاً لما ورد في العهود المختلفة، وحينما هدمت الزَّلازل جانباً من بيعة الرُّها الكبرى، أمر معاوية بترميمها وإعادتها إلى سابق عهدها[٢].

وتشير الرِّوايات إلى أنَّ المسلمين كانوا على صلة

---

(١) الطبري ٣/٦٠٩، اليعقوبي ٢/١٦٧.

(٢) الشام في صدر الإسلام ١٣٠.

مع أهل الذِّمَّة في حياتهم اليوميَّة، ولم يعيشوا منعزلين عنهم، فقد سكن المسلمون مع النصارى في دور واحد... وكان المسلم يعود جاره النَّصراني إذا مرض، فقد عاد أبو الدَّرداء - الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «عويمر حكيم أُمَّتي»[١] - جاراً له نصرانياً[٢].

ولم يكن بُدٌّ للعرب الفاتحين من كتَّاب من البلد يجيدون فهم الرُّوميَّة، ولذلك لم يكن عند معاوية كاتب نصراني واحد فقط، بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصِّناعة، وكلُّهم من المسيحيِّين، وإنّ الذين يجيدون العربية قد بقوا في وظائفهم بعد تعريب الدواوين، واستمر استخدام الأُمراء والخلفاء للنصارى، فقد قلد سليمان بن عبد الملك أمر النَّفقة على بناء الرَّملة ومسجدها الجامع لكاتب له نصراني من أهل اللُّد يقال له البطريق بن النكا[٣]، وكان من

---

(١) أُسْد الغابة ٦/٩٧.

(٢) عيون الأخبار ٣/٤٤، أحكام أهل الذِّمة، ابن قيم الجوزيَّة ١/٢٠.

(٣) فتوح البلدان ١٤٩، الوزراء والكتَّاب ٤٨.

كتاب هشام بن عبد الملك تاذري بن أسطين النَّصراني الذي قلده ديوان حمص.

«إنَّ الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدَّعوة إليه وتعليم مبادئه كما في الدِّيانة المسيحية، ولو أنّه كان للإسلام أُناس قوَّامون لسهل علينا معرفة السَّبب في انتشاره السَّريع، فإنا شاهدنا الملك شارلمان[1] يستصحب معه على الدَّوام في حروبه ركباً من القُسُس والرُّهبان، ليباشروا فتح الضَّمائر والقلوب؛ بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه التي كان يُصْلي بها الأُمم حرباً تجعل الولدان شيباً، ولكنَّنا لا نعلم للإسلام مجمعاً دينيّاً، ولا رسلاً، ولا أحباراً وراء الجيوش، ولا رهبنة بعد الفتح، فلم يُكره أحد عليه بالسَّيف أو باللِّسان»[2].

(١) شارلمان (٧٤٢-٨١٤م) ملك الإفرنج وإمبراطور الغرب، مؤسِّس السُّلالة الكارولِيَّة، اتَّخذ (آخن) عاصمة له، حاول فتح إسبانية الإسلامية ففشل في سرقسطة عام ٧٧٨م.

(٢) الإسلام خواطر وسوانح، الكونت دي كاستري، ٣٩ و٤٠، القاهرة، مطبعة السَّعادة.

نقاط هذا التمهيد تتعلق بما أورده الإكسرخوس جوزيف في كتابه، فالنُّصوص هنا مختارة لتناسب الرَّدَّ على ما ورد في الكتاب من أكاذيب وأضاليل.

مع كتاب يوحنا الدّمشقي

أخطاء، هفوات، أكاذيب

بلا توثيق

جاء في (تصدير الكتاب، في الصَّفحة ١١) جوهر ما أراد الإكسرخوس جوزيف نصر الله أن يقوله ويثبته - دون توثيق - في كتابه: (منصور بن سرجون التَّغلبي، المعروف بالقدِّيس يوحنا الدمشقي، أو الفتح الإسلامي السهل لمدينة دمشق وأسبابه)، قال:

«ويحقُّ لبعض المدن أن تفاخر بالبقاء والخلود، لأنَّها أماكن عصفت فيها الروح، ولأنَّها مراكز إشعاع عقليٍّ وروحيٍّ تركت أثراً خيِّراً ومقوِّماً لما حولها، قد تكون قد خضعت للقوَّة، وقد تكون استعبدت للمادة، وتفكَّكت أوصالها بشراسة عدوٍّ وفظاظته، لكن هذه المدن ما تلبث أن تنهض من ركامها، وتخلع عنها نير

الظُّلم والعبودية، وتسيطر بقوَّة العقل والرُّوح على فاتحها وغازيها، لتعلن للملأ بكلٍّ تأكيد تلك الشَّريعة الأبديَّة، شريعة تفوُّق الرُّوح على الجسد، والعقل على المادَّة».

كلام منمَّق لا ينطبق على الفتح الإسلامي أبداً، فما انحسر الإسلام عن بلد وصل إليها من تركستان الشرقية، إلى حوض النيجر، ومن تتارية إلى إفريقية الجنوبيَّة، والأندلس لها وضعها الخاص، حيث محاكم التفتيش، التي فرضت التَّنصير، أو القتل، أو التهجير إلى المغرب الأقصى.

لقد رأيت بمؤتمر عقد في إسطنبول ما بين ٢٩ و٣٠ أيار ٢٠٠٨م بمناسبة مرور ٥٥٥ عاماً على فتح القسطنطينيَّة، صينياً من تركستان (سيكيانغ) يخطب بالعربيَّة، ويفاخر بإسلامه، وجلس جانبي شاب يتكلم العربيَّة ويكتب بها دوماً، فسألته: من أي بلد أنت؟ قال: أنا من أصل تتري، هاجر جدودي من قازان إلى رومانية منذ خمس مئة سنة، قلت: وتتكلم بعربيَّة

سليمة وتكتب بها؟ قال: هذه لغة مقدَّسة، كيف لا أتكلم بها وأكتب بها وهي لغة كتابي المقدَّس، القرآن الكريم؟.

وممن ألقى كلمته بالعربيَّة الفصحى: الماليزي، ومن جاء من كوسوفو، ومن قازاخستان - وهاجم أمريكة وإسرائيل لما يفعلانه في الأرض الفلسطينيَّة المحتلة - ومفتي صربية والسَّنجق[1]، ومن جاء من تراقية في اليونان، وقال: بلدي كولجينا يرتفع الأذان فيها خمس مرات بالعربية، ومن جاء من مكدونية.

ومن توصيات المؤتمر: ضرورة تعليم اللُّغة العربيَّة في البلاد الإسلاميَّة، ودعم تحفيظ القرآن الكريم في العالم الإسلامي.

تفاخر اليوم المدن التي فتحها المسلمون بدينها وبلغتها العربيَّة، وهي مراكز إشعاع عقلي وروحي

(١) السَّنجق: إقليم في وسط البلقان، في موقع استراتيجي حسَّاس، مساحته ٨٠٠٠كم٢، فيه نصف مليون كلُّهم من المسلمين، مع مليون ونصف مليون مهاجر.

للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، لأنَّها لم تستعبد، ولم تتفكَّك أوصالها بشراسة عدوٍّ فاتح وفظاظته، ولم تدمَّر لتنهض من ركامها وتخلع عنها نير الظُّلم والعبوديَّة.

وأثبت الزَّمن أنَّ الدِّين الذي يستبعد العقل، ويلجأ إلى الرُّموز والطلسمات، واعتقد بهذا وإلا هلكت، وأطع وأنت أعمى، ودع عقلك وأقبل، والجهل رأس العبادة.. هو في هجر وتراجع، وأنَّ الدِّين الذي يخاطب أُولي الألباب والعقول والنُّهى، ومن آياته: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/١١١]، و ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]، دين ينتشر ويكثر أتباعه، وهو الأول في كسب الأتباع عالمياً إلى اليوم.

* * *

وفي الصفحة ٢٦:

«اجتاحت الجيوش العربيَّة تحت إمرة يزيد بن أبي سفيان بلاد فلسطين سنة ٦٣٤م، والتقت في ٤

شباط في داثينا[1] بجيوش جمعها بسرعة سرجيوس شقيق هرقل، فانهزم البيزنطيُّون، وعاث المنتصرون في البلاد فساداً وخراباً، ثمَّ استعدَّ الخصمان مدَّة أشهر لاستئناف الحرب، واستعان قوَّاد الطَّرفين بإمدادات جديدة، فتألف على عجل جيش بيزنطي، وأسرع إلى حوران للدِّفاع عن طريق الشَّمال، وجاءت من العراق مفارز عربيَّة تحت إمرة خالد بن الوليد وأبي عبيدة، فاجتازت الصَّحراء وانضمَّت إلى جيوش يزيد، وكان المسلمون أسياد سورية الجنوبيَّة، فنزحوا نحو الشَّمال بعد أن تجمعوا، والتحموا في أجنادين (٣٠ تموز ٦٣٤م)، فكان للعرب نصر مبين، وارتدَّ المندحرون نحو دمشق، وارتأى سرجيوس قائد الجيش المنهزم أن يتَّجه بسرعة نحو حمص فأنطاكية».

أيُّ جملة صحيحة تاريخياً في هذه الفقرة؟

«اجتاحت الجيوش العربيَّة» كأنَّها جحافل تفوق في

(١) داثِن: ناحية قرب غزَّة بأعمال فلسطين، (معجم البلدان ٢/ ٤١٧).

عددها عدد جيوش البيزنطيِّين، لقد تقدَّم أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، وشُرحبيل بن حَسَنة ووجهته الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، وجاءهم مدد خالد بن الوليد من العراق، وما تجاوز عدد هذه الجيوش مجتمعة أربعين ألفاً[1]، وجيش بيزنطة أكثر من مئة ألف.

«تحت إمرة يزيد بن أبي سفيان بلاد فلسطين» خطأ آخر، لقد كانت وجهة يزيد بن أبي سفيان دمشق، ووجهة عمرو بن العاص فلسطين.

«والتقت في ٤ شباط في داثينا بجيوش جمعها بسرعة سرجيوس شقيق هرقل، فانهزم البيزنطيُّون»، تبرير «جمعها بسرعة.. فانهزم»، الاشتباكات مع الرُّوم البيزنطيِّين منذ مؤتة، وحشود الرُّوم مستمرة منذ تبوك.

«وعاث المنتصرون في البلاد فساداً وخراباً»، ومع كلِّ أسف أقول لمن كتب هذا: كذَّاب أشر، ودليل

(١) الطَّبري ٣/ ٣٩٤.

ذلك أنَّك لم تذكر بلدة واحدة عاث المنتصرون فيها فساداً وخراباً، والدَّليل الآخر النَّهضة الاقتصاديَّة التي عمَّت البلاد بعد الفتح مباشرة، في زمن معاوية.

«ثمَّ استعد الخصمان مدَّة أشهر لاستئناف الحرب»، خطأ، الفتوح لم تهدأ أشهراً.

«واستعان قوَّاد الطَّرفين بإمدادات جديدة، فتألَّف على عجَل جيش بيزنطي»، ما زال يبرر انكسار الرُّوم، لقد تألف الجيش على عجل، وجاء الجهل الصُّراح بقوله: «وجاءت من العراق مفارز عربيَّة تحت إمرة خالد بن الوليد وأبي عبيدة»، جاهل بتاريخنا وأعلامه، يكتب تاريخنا، متى كان أبو عبيدة بن الجراح في العراق؟ لم يصلها في حياته كلِّها!.

«وكان المسلمون أسياد سورية الجنوبيَّة، فنزحوا نحو الشَّمال بعد أن تجمَّعوا، والتحموا في أجنادين (٣٠ تموز ٦٣٤م)، فكان للعرب نصر مبين، وارتد المندحرون نحو دمشق»، أُقسمُ أن كاتب تاريخنا (جوزيف نصر الله) لا يعرف موقع أجنادين، إنها

جنوب اللُّد والرَّملة في فلسطين[1]، فعبارة «فنزحوا نحو الشَّمال بعد أن تجمَّعوا، والتحموا في أجنادين»، تثبت جهله، وأنه حاطب ليل.

«وارتأى سرجيوس قائد الجيش المنهزم أن يتَّجه بسرعة نحو حمص فأنطاكية»، الذي كان بحمص هرقل، وهو الذي ودَّع سورية، وداعاً لا لقاء بعده، في أنطاكية.

فأيُّ عبارة صحيحة سليمة في المقطع كلِّه؟

* * *

وفي الصَّفحة ٢٧:

«وقبل احتلالها [احتلال دمشق] بأُسبوع أو أُسبوعين، انسحبت الجيوش الإمبراطوريَّة من مواقعها تاركة الدِّمشقيِّين يتدبرون شؤونهم، فعزموا على

(١) أجنادين في فلسطين جنوبي الرَّملة (معجم البلدان ١/ ١٠٣) ويذكر ياقوت الحموي أن عدد الرُّوم في معركة أجنادين كان مئة ألف، وهرقل يومئذ بحمص.

التَّفاوض، وحصلوا على استسلام شريف من أُولئك البدو الرُّحَّل المرهقين من طول الحصار، وأملوا عليهم شروطهم، وقد قبلوا أن يدفعوا ضريبة الحرب».

وبعد ترك عبارة «أُولئك البدو الرُّحَّل المرهقين من طول الحصار» التي لا تليق بالفاتحين وحضارتهم التي حملوها، سيتناقض المؤلف مع نفسه في الصفحة ٣٩ حيث يقول: «دام حصار دمشق ستَّة أشهر غير متواصلة، أوقفته من حين إلى آخر المناوشات وهجمات المدافعين عن المدينة، فقد كان العرب قليلي الخبرة بفنِّ الحصار، وكانت المدينة شديدة التَّحصين، ووافرة المؤن والمدافعين»، وفي الصَّفحة ٤٢: «ففتح منصور باب شرقي لخالد بن الوليد المدينة، كبَّروا، فسمع الرُّوم المقاتلة المقيمون على الأبواب التَّكبير..»، فكيف انسحبت الجيوش الإمبراطوريّة قبل احتلال دمشق بأُسبوع أو أُسبوعين من مواقعها، تاركة الدِّمشقيِّين يتدبّرون شؤونهم؟

* * *

وفي الصَّفحة ٣٠، تحت عنوان: (سكان دمشق)، يقول:

«يؤلِّف الآراميُّون عنصر السُّكان الأساسي في مدينة دمشق، وقد تَهَلْيَنَ هؤلاء الآراميين [كذا] زمن احتلال السَّلجوقيِّين لدمشق»، ثمَّ يقول: «وتسرَّب إليها بعض العرب منذ احتلال الأنباط لها، وقد ساعد على دخول العنصر العربي فيها موقعها على مقربة من البادية، ووضعها كمركز تجاري، ونقطة توقُّف القوافل الَّتي تذرع الصَّحراء».

الآراميُّون عرب هاجروا إلى بلاد الشَّام منذ عام ١٥٠٠ق.م، والهلنستيَّة[1] كانت ما بين ٣٢٢ و١٤٦ق.م، فلم يَتَهَلْيَن الآراميُّون زمن احتلال (السَّلجوقيِّين)، وصوابها السَّلوقيِّين نسبة إلى سلوقس نيكاتور، الذي حكم إيران والعراق وسورية وآسية الصُّغرى بعد موت الإسكندر المقدوني عام ٣٢٤ق.م في بابل، وتحلَّلت الهلنستيَّة من القيود الأخلاقيَّة، مع

(١) الهلنستيَّة: هيلين إحدى جدَّات اليونان، وإيست: الشَّرق.

نزعة أنانيَّة فرديَّة، ممَّا عجَّل في انهيارها، وانهيار اليونان.

فعبارة «وتسرَّب إليها بعض العرب»، عبارة خاطئة، لأنَّ سكانها الآراميين عَرَب.

* * *

ووصف جوزيف نصر الله حالة بلاد الشَّام لدى الفتح العربي، في الصَّفحة ٣٧ فقال:

«في ١٦ محرَّم ١٤ للهجرة مَثُلَت الجيوش العربيَّة تحت إمرة خالد بن الوليد أمام دمشق وحاصرتها، وكانت الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة قد خرجت لتوِّها منتصرة انتصاراً باهراً من حرب طويلة ومستمرَّة ضد الفُرْس، هذا الصِّراع المرير الطَّويل الذي نتج عنه إضعاف القدرة العسكريَّة من جرّاء الخسائر الفادحة في الرِّجال والعتاد والمال، فلم تنعم الإمبراطوريَّة بالهدوء والوقت الكافي لاستعادة قواها وتجهيز جيوشها والتَّعويض عن خسائرها».

ويتابع في الصَّفحة ٣٨ قائلاً:

«كانت حدود سورية تشكِّل خطًّا دفاع منيع [كذا]، إلَّا أنَّ الحصون كانت خالية من حاميتها لخشية الأباطرة من الجيوش المجندة محلِّيّاً ومن القوَّاد أبناء البلاد، الأمر الَّذي أفقد السُّوريين مهنة حمل السِّلاح، زد على ذلك أنَّ الغساسنة أفضل حماة الحدود الشَّرقيَّة في القرن السَّادس، باتوا مفكَّكي القوى في مطلع القرن السَّابع، وكان الحكَّام البيزنطيُّون ينظرون بعدم الارتياح والرِّضى إلى نجاح أتباعهم ومحكوميهم، ممَّا يفسِّر لنا تقدُّم العرب السَّريع حتَّى بلغوا قلب سورية في مدَّة وجيزة، وبعدد قليل من الجند».

الجيوش العربية تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح وقيادته، لا إمرة خالد بن الوليد ﷺ.

وخروج الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة منتصرة «انتصاراً باهراً من حرب طويلة ومستمرة ضد الفُرس»؛ أعطاها خبرة عسكرية، وفنوناً قتاليَّة، والخسائر الفادحة في الرِّجال والعتاد وَهْمٌ، بدليل أنَّ المسلمين ما خاضوا

حرباً في الشَّام هم كثرة والبيزنطيُّون قلّة، لقد كان البيزنطيُّون في اليرموك أكثر من مئتي ألف، والمسلمون أربعون ألفاً فقط، وتمَّ النصر المبين للمسلمين.

تبريرات لحفظ ماء وجه قومه المنهزمين أمام الجيوش الإسلاميَّة المتميِّزة بقوَّة إيمانها وانضباطها مع قادتها وأمام الشُّعوب التي فتحت بلادها: «فلم تنعم الإمبراطوريَّة بالهدوء والوقت الكافي لاستعادة قواها وتجهيز جيوشها والتَّعويض عن خسائرها»، وينقض هذا الرَّأي سيرهم إلى مؤتة لقتال جيش المسلمين، وتجمُّعهم لغزو المدينة المنوَّرة في تبوك.

و«كانت حدود سورية تشكِّل خطَّ دفاع منيع إلَّا أن الحصون كانت خالية من حاميتها لخشية الأباطرة من الجيوش المجنَّدة محليّاً ومن القوَّاد أبناء البلاد، الأمر الَّذي أفقد السُّوريِّين مهنة حمل السِّلاح» مع تفكُّك الغساسنة، «يفسِّر لنا تقدُّم العرب السَّريع حتّى بلغوا قلب سورية في مدة وجيزة وبعدد قليل من الجند» أي ضعف عدوِّهم كان سبب انتصارهم، أما الجيوش المسلمة الفاتحة «وبعدد قليل من الجند» لم تكن فيهم

صفات الجيوش المتفوِّقة بروحها الإيمانيَّة، ولا معنوياتها العالية، ولا عبقرية قوّادها في الخطط العسكريَّة[1] ومفاجأة عدوِّهم.

وإذا كان أباطرة الرُّوم البيزنطيِّين يخشون من الجيوش المجنَّدة محلياً، ومن القوَّاد أبناء البلاد، أي انعدمت الثِّقة بينهم وبين شعوبهم، فيمكن القول بيقين: وقف السُّكان في سورية موقف العداء من الرُّوم وكلٌّ ما يتَّصل بهم من دين وحضارة، بسبب سياستهم وضرائبهم المرهقة، يذكر البلاذري في (فتوح البلدان ١٢٣): قال المسلمون لأهل حمص قبيل اليرموك: إنَّنا عاجزون عن مساعدتكم والدِّفاع عنكم، وترانا مضطرين إلى أن نترككم وشأنكم، وأعادوا لهم الجزية، فقال سكان حمص: «نفضِّل حكمكم وعدالتكم على الجور والظُّلم اللَّذين تعرَّضنا لهما قبلاً»، وتعهدوا بإغلاق أبواب حمص في وجه

(١) كنظام الكراديس في اليرموك الَّذي تفتَّق من عبقرية خالد بن الوليد العسكريَّة.

جيش الرُّوم «إلَّا أن نُغْلَب»، «ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم [على الروم] فلو كانوا هم، لم يردُّوا علينا شيئاً، وأخذوا كلَّ شيء بقي لنا»[١].

فإمبراطورية حكامها في واد، وشعوبها في واد آخر لابدَّ لها أن تنهار، سنن كونيَّة؛ أن ينتصر العدل على الظلم «في مدَّة وجيزة، وبعدد قليل من الجند».

* * *

وفي الصَّفحة ٣٩ يقول:

«وقد ظنَّ الدِّمشقيُّون أوَّلاً أنَّ العرب الفاتحين لن يبقوا طويلاً عندهم، وأنَّهم أتوا للكسب والغنيمة فقط، وسوف ينسحبون عند دنوِّ الشِّتاء، ولكن خاب فألهم عندما حلَّ الشِّتاء، ولم تنسحب الجيوش الإسلاميَّة، فساورتهم الشُّكوك».

ظنٌّ تخيَّله جوزيف نصر الله دون دليل أو توثيق، الجيش الفاتح لم يخض حرب غزو خاطفة، ينهب

(١) الخراج لأبي يوسف ٨١، الدَّعوة إلى الإسلام ٧٩.

ويسلب ويتراجع، لقد خاض الجيش الفاتح حرباً نظاميَّة، تعني بوضوح تحرير الشَّام من الرُّوم، ونشر حضارة سماحتها ظاهرة لكلِّ ذي عينَيْن في العهدة العمريَّة، وبما قاله أهل حمص حينما انسحب أبو عبيدة إلى اليرموك.

وينقض «أنهم أتوا للكسب والغنيمة فقط» وأن الغنيمة هي الهدف، أنَّ العرب عاشوا في باديتهم المقفرة مئات السِّنين، وهم يعرفون الخيرات في الشَّمال، فلماذا لم ينطلقوا إلى هذه المواقع الخصبة من قبل؟ وإذا قيل إنَّهم كانوا يخشون الفرس والرُّوم ثم ضَعُفَ هؤلاء فخرجوا، فإن هذا مردود، فقد بقي العرب يخافون الرُّوم والفرس حتَّى كتب الله لهم النَّصر باليرموك والقادسيَّة.

ومات أعظم قائد في تاريخ الإسلام، خالد بن الوليد رضي الله عنه، وهو لا يملك من حطام الدُّنيا غير فرسه وغلامه وحسامه فقط، فأين الغنائم؟

إنَّ مقدار الجزية يُعَيَّن وفق حالة السُّكان

الاقتصادية، والَّذين لا معاش لهم أو هم عالة على غيرهم، لا يعفون من أدائها فقط، بل يُعطون من بيت مال المسلمين[١]، فالرَّفاه في نظام الإسلام الاقتصادي للجميع، وشكَّلت الجزية عُشْر ما كان الرُّوم يأخذونه من السُّكان، وهي في الإسلام قُبَالة حماية السُّكَّان وانتفاعهم بالمرافق العامَّة، يدفع المسلمون أضعافها من زكواتهم وصدقاتهم وأوقافهم.

* * *

وفي الصَّفحة ٤٠ يقول:

«لقد تباينت روايات المؤرِّخين القدماء المسيحيين والمسلمين حول أيَّام دمشق الأخيرة قبل سقوطها بيد العرب، ويتَّفق أكثرها على أنَّ خالداً [كذا] بن الوليد أدار عمليَّات الحصار في القسم الجنوبي الغربي قبالة الباب الغربي والباب الصَّغير».

وَهْمٌ، لم تتباين روايات المؤرِّخين، فهي تتَّفق على

(١) الخراج ٨٣، فتوح البلدان ١٣٥، الدَّعوة إلى الإسلام ١٤٣.

الخطوط العريضة، ويكمِّل بعضها بعضاً في الأُمور الفرعيَّة والجزئيَّة، ودليل الوهم القاطع، وجهل جوزيف نصر الله الواضح، قوله: إنَّ خالداً كان قبالة الباب الغربي والباب الصَّغير، لقد كان خالد قبالة الباب الشَّرقي، وكان يزيد بن أبي سفيان قبالة الباب الصَّغير، والباب الغربي (باب الجابية) كان أبو عبيدة بن الجراح أمامه، وشرحبيل بن حسنة عند باب توما، وعمرو بن العاص عند باب الفراديس[١].

ودليل التَّخبط والوهم قول جوزيف نصر الله في الصَّفحة ٤٢: «فلمَّا أجهد أهل دمشق الحصار، صعد منصور عامل دمشق على الباب الشَّرقي، فكلَّم خالد بن الوليد، أن يعطي الأمان له ولأهله ولمن معه، ولأهل دمشق، وكتب له أماناً هذه نسخته: هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل مدينة دمشق، إني قد أمنتكم على دمائكم ودياركم وأموالكم وكنائسكم ألَّا تُهْدم ولا تُسْكَن، وتسلَّم عليكم. ودفع القرطاس، ففتح

(١) أطلس التَّاريخ العربي الإسلامي.

منصور باب الشَّرقي لخالد بن الوليد المدينة كبرَّوا، فسمع[١] الرُّوم المقاتلة المقيمون على الأبواب التَّكبير، وعلموا أنَّ منصور قد فتح الباب، وأدخل العرب المدينة، فخلَّوا عن الأبواب وهربوا..».

فخالد على الباب الشَّرقي، وفيه كان الفتح.

وأبو عبيدة هو الَّذي اتَّفق مع سكان دمشق على بنود الفتح، لأنَّه القائد الأعلى، وفتحت دمشق نصفها الشَّرقي فتحاً عسكرياً، ونصفها الغربي فتح صلح، وهذا ما يرفضه جوزيف نصر الله لأمر قادم، هو بناء المسجد الكبير، المسجد الأموي.

وقوله: الرُّوم المقاتلة هربوا وتركوا أهل دمشق يلاقون مصيرهم بأنفسهم، يناقض ما قاله في الصَّفحة ٤٠: «وبعد انسحاب الحامية البيزنطيَّة منها بأسابيع»، فمن أين جاء الرُّوم المقاتلة، المقيمون على الأبواب؟

ويقول في الصَّفحة ٤٠، وعن دخول المدينة صلحاً واستسلاماً وعنوة في الوقت ذاته، وطبقت بنود

(١) في أصل النَّصِّ: فسمعوا.

المعاهدة على المدينة كلِّها على الرَّغم من احتلال قسم منها عنوةً، يقول:

«لقد روَّج ابن عساكر قصة هذا الاحتلال في الشَّرق، ونشرها بعده فون كريمر في الغرب، على أنَّ أسلوبها يكشف أنَّها اختُلِقَت فيما بعد تملُّقاً وتودُّداً للفاتحين وتبريراً لاستملاكهم كنيسة القدِّيس يوحنا (الجامع الأُموي) في عهد الخليفة الوليد الأوَّل (٧٠٥-٧١٥)».

التَّهجُّم على ابن عساكر - المؤرِّخ الثَّبت - يتكرَّر في الصفحات ٢٨ و٢٩ و٤٠، وفي الصَّفحة ٤٩ يقول: «وممَّا يدحض تخرُّصات ابن عساكر»، الخَرَص في (اللِّسان): الكَذِب، ورجل خَرَّاص: كذَّاب.

ابن عساكر المؤرِّخ علي بن الحسن بن هبة الله[١] (٤٩٩ -٥٧١هـ = ١١٠٥ - ١١٧٦م) ثقة الدين الدِّمشقي، الحافظ، محدِّث الدِّيار الشَّاميَّة، صاحب تاريخ دمشق الكبير، مؤرخ محدِّث ثقة، ما طعن بنتاجه

(١) الأعلام ٤/ ٢٧٣.

أحد، جعله جوزيف (خرَّاصاً)، يتملَّق الوليد بن عبد الملك المتوفى ٧١٥م ويتودَّد له، ويبرر عمله، وابن عساكر جاء من بعده بأكثر من أربع مئة وخمسين سنة، (توفي عام ١١٧٦م)، وكيف تمَّ هذا؟ ومن (يخرُص)؟ لقد نسي جوزيف المثل العربي القائل: إن كنت كَذُوباً فكن ذَكُوراً!

* * *

وجاء في الصَّفحة ٤٢، وهو يحلِّل ويستنتج:

«قد تحصل خيانة من قِبَل المحاصَرين؛ أمَّا أن تكون الجيوش العربيَّة احتلت دمشق من جرَّاء خيانات جزئيَّة، فهذا لا يفسِّر معاملة العرب الحليمة لسكان دمشق، والشُّروط الشَّريفة التي حصلت عليها المدينة وتمتَّعت بها، ما لم يكن هنالك شخص معتبر ذو مكانة مرموقة في المدينة، عمل على تسليمها بحسب الأُصول، وجعل السُّكان ينعمون برعاية ممتازة، لقد لعب منصور الدَّور الرَّئيسي بصفته حاكم المدينة

الأصيل أو الموقت، بسبب انسحاب الموظَّفين البيزنطيِّين».

هذا ما قاله الإكسرخوس، وما نقوله نحن: معاملة العرب الحليمة الرَّحيمة لسكان دمشق، ليست بدعاً لها خاصَّة خالصة، إنَّها لكلِّ المدن والبلاد التي فتحت في كلِّ الأصقاع الَّتي فتحها المسلمون، من كاشغر وسمرقند، حتَّى طليطلة وطرطوشة، ويذكر هنا أنَّ محمد بن القاسم الثَّقفي كان يقيم في كلِّ مدينة فتحها في وادي السِّند مجلس مظالم، للتَّعويض على كلِّ مدنيٍّ تضرَّر من الحرب ولم يشارك بها، فالسكَّان نعموا برعاية ممتازة، ليس في دمشق استثناءً، ودليل خطل ما يقوله الإكسرخوس جوزيف نصر الله: أنَّ الشُّروط الشَّريفة عند فتح دمشق، هي الشُّروط ذاتها في بيت المقدس (العهدة العمريَّة)، وفي حمص وحلب واللَّاذقية والفسطاط والإسكندريَّة.. ولكنَّه يريد هذا الاستثناء الذي فرضه عليه هواه، ليظهر الدَّور المزعوم ليوحنا الدِّمشقي، الدَّور الرَّئيسي وحاكم المدينة الأصيل أو الموقَّت، ويناقض نفسه

حينما يقول: «بسبب انسحاب الموظفين البيزنطيِّين»، فقد قال قبل فقرة واحدة فقط، وفي الصَّفحة ٤٢ ذاتها: «فسمع الرُّوم المقاتلة المقيمون على الأبواب التَّكبير، وعلموا أنَّ المنصور قد فتح الباب وأدخل العرب المدينة».

إنَّ عدالة المنتصر فرضتها عقيدته، لا يوحنا الدِّمشقي، لقد عمَّت عدالة المنتصر كلَّ الشُّعوب الَّتي وصل إليها، وهذه العدالة هي التي جعلت تلك الشُّعوب تعتنق الإسلام قناعة وطواعية، ولم ترتد عنه بعد انحسار السُّلطان السِّياسي العسكري عنها.

ويقول الإكسرخوس في الصَّفحة ٤٣: «فكان من الأفضل بالتَّالي التَّفاهم المباشر مع هؤلاء السُّذَّج أبناء الصَّحراء، وقد أبدوا اعتدالاً نادراً في فتوحاتهم كلِّها»، إنَّه يقدِّم التحليل وما ينقضه، تخبُّط صريح، لأنه لا يكتب ما جرى على حقيقته التي جاءت في كتبنا التَّاريخيَّة المعتمدة، ويكتب بهوى يعمي ويُصم.

ويقول في الصَّفحة ٤٣:

«لينال [يوحنًا الدِّمشقي] منهم أفضل الشُّروط الممكنة، فينقذ هكذا المدينة من غوائل الحصار الطَّويل، ومشاهد السَّلب والعنف والدَّمار الَّتي ترافق الفتوحات، ويصون مستقبل حقوق مواطنيه وأموالهم، فاستحقَّ بمسلكه هذا، لا اللَّوم، بل عرفان الجميل».

لماذا لم يستسلم مع بداية الحصار، ما دام الجند البيزنطيُّون قد انسحبوا وتركوهم لقدرهم مع بداية الحصار؟ «لقد هجرت الحامية البيزنطيَّة مواقعها بجبانة، تاركةً إيَّاهم لمصيرهم المحتَّم» (الصفحة ٤٣ ذاتها)، لماذا لم يحاكم الأُمور ويقدِّر الموقف السَّليم مع بداية الحصار؟

والإجابة الطَّبيعيَّة الصَّحيحة: بعد ستة أشهر جاءه اليقين بنصر المسلمين وفتحهم للمدينة، هذا إذا سلَّمنا أنَّ له دوراً في الصُّلح والفتح.

* * *

ويقول في الصَّفحة ٤٣:

«وقد شعر مسيحيّون كثيرون أنَّ هذه الغزوة تختلف عن الغزوات العادية»، ثمَّ يقول في الصَّفحة ذاتها: «لننتظر الشّتاء، فيعيد إلى الجزيرة العربيَّة هؤلاء القوم، لابدَّ من أن ندع العاصفة تمرُّ، ونحاول إنقاذ الحاضر ونبعد عن المنطقة أهوال الحرب».

أيُّ الرَّأيَيْن أصوب، شعورهم بأن هذه (الغزوة) تختلف عن الغزوات العاديَّة، أم هي عاصفة تمرُّ وتنقذ المنطقة من أهوال الحرب؟

وهذا يناقض ما جاء في الصفحة ٣٩: «وقد ظنَّ الدِّمشقيُّون أوّلاً أنَّ العرب الفاتحين لن يبقوا طويلاً عندهم، وأنَّهم أتوا للكسب والغنيمة فقط، وسوف ينسحبون عند دنوِّ الشّتاء، ولكن خاب فألهم عندما حلَّ الشّتاء، ولم تنسحب الجيوش الإسلامية، فساورتهم الشُّكوك».

* * *

وجاء في الصَّفحة ٤٤:

«لقد آثر [يوحنا الدِّمشقي] أن ينضم إلى إخوانه في العرق على أن يساعد بيزنطة، ولاسيّما أنَّه كان غير راضٍ عن هرقل، وممتعضاً منه أن أجبره على دفع مئة ألف دينار للخزينة، على أنَّ هذا الامتعاض لم يكن الدَّافع الجازم الذي حمل المنصور [يوحنا الدِّمشقي] على تسليم المدينة، وإلَّا نكون ألصقنا بهذا الرَّجل صِغَر النَّفس، ودناءة العاطفة والشُّعور.. عندما طال حصار المدينة [دمشق] رجع منصور إلى الله يستلهمه عمَّا يجب فعله، فأوحى إليه أن يُسَلِّم المدينة، وقد قيل له: إنِّي تخلَّيت عنها إلى حين، هذا ما وجده مكتوباً، وأكَّده أحد إخواننا».

إنَّ الظُّلم الضَّرائبي الرُّومي البيزنطي لم يعانه يوحنا الدِّمشقي بمفرده، لقد تحمَّله كلُّ سكان بلاد الشَّام ومصر والشَّمال الإفريقي، لذلك وقفوا موقف العداء من الرُّوم، وكلِّ ما يتصل بهم، من دين وحضارة، بسبب سياستهم وضرائبهم المرهقة للسُّكان، فرجعوا إلى واقعهم المُعَاش، وإلى المنطق والعقل، ورحبوا

بالفاتحين: «ردَّكم الله علينا، ونصركم عليهم [على الرُّوم] فلو كانوا هم، لم يردُّوا علينا شيئاً، وأخذوا كلَّ شيء بقي لنا»، أمَّا يوحنا الدِّمشقي «فرجع إلى الله يستلهمه عمَّا يجب فعله، فأوحى إليه أن يسلِّم المدينة، وقد قيل إليه [ولا ندري مَنِ القائل، الوحي أم الله؟]: إنِّي تخلَّيت عنها [عن مدينة دمشق] إلى حين»، والحين: حان الأمر حيناً وحيْنُونة: قرب وقتُه، حان حينُه: قرب وقتُه، فالحين: الوقت، المدَّة، وفي (لسان العرب: حين): الحين: الدَّهر، وقيل: وقت من الدَّهر مبهم، يصلح لجميع الأزمان كلِّها، طالت أو قصُرت، يكون سنة وأكثر من ذلك، وخصَّ بعضهم به أربعين سنة، أو سبع سنين، أو سنتين أو ستة أشهر أو شهرين، وحان الشَّيء: قَرُب، وحانت الصَّلاة: دَنَتْ، هذا المعنى اللُّغوي الدَّقيق لـ(حين)، وهي تستخدم اليوم للوقت القريب القصير، وهذا دليل على كذب يوحنا الدِّمشقي بتلقِّيه الوحي، لقد فتح العرب المسلمون دمشق عام ٦٣٥م، وهي إلى يومنا هذا من عام ٢٠٠٨م، تعتز بعروبتها لغة، وإسلامها ديناً

خالداً، وهذا دليل قاطع على أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يتخلَّ عنها ساعة من نهار!

* * *

وقال في الصَّفحة ٤٤:

«أمَّا هرقل، فقد أسرع وحشد في سورية الشَّماليَّة جيشاً لا تجانس فيه، ولا وحدة بين أفراده، قليل التدريب العسكري، ومؤلَّفاً من الأرمن والسُّوريِّين المسيحيين المستعربين، ومن جنود جاؤوا من معسكرات الأناضول».

علم جوزيف نصر الله أن الجيوش التي سيجمعها هرقل لن تحقِّق نصراً، فراح يبرر ويجعل سبب الفشل والهزائم:

-لا تجانس فيه ولا وحدة بين أفراده.

- وقليل التدريب العسكري.

لكنه يخطئ للمرَّة المئة وينسى ما قال، ويقول: «ومن جنود جاؤوا من معسكرات الأناضول»، فمن جاء من المعسكرات جاء مدرَّباً مستعدّاً للنزال.

ويتابع دفاعه عن يوحنا الدِّمشقي، فيورد قصَّة مختلقة في الصَّفحة ٤٦، ذكرها ابن البطريق وابن العميد، مفادها:

«ومضت أيام والبيزنطيُّون معسكرون هكذا قبالة العرب، عندما خرج منصور من دمشق، وجاء يحمل المال الذي جمعه من المدينة قاصداً معسكر باهان [قائد الجيش البيزنطي] ليدفع رواتب الجند، ولمّا اقترب من المعسكر يرافقه جمع غفير من سكان دمشق حاملين المشاعل، وقد أسدل اللَّيل ستره على الطَّبيعة، أخذوا يقرعون الطُّبول، وينفخون بالأبواق، ويطلقون الصَّرخات، وهي حيلةُ غدرٍ استنبطها منصور، فلمَّا رأى البيزنطيُّون المشاعل وراءهم وسمعوا صوت الأبواق، وقرع الطُّبول، ظنُّوا أنَّ العرب غدروا بهم وانقضوا عليهم من خلف، فهربوا، وألقوا بأنفسهم في نهر وادي الرَّقَّاد، هذا النَّهر الكبير، فهلكوا ولم ينجُ إلا العدد القليل، ففرَّ الإدبار من كلِّ جهة».

قصة خيالية، جيوش لا حراسة فيها ولا يقظة ولا استطلاع، جاء ليدفع الرَّواتب يرافقه جمع غفير

من سكان دمشق حاملين المشاعل، يقرعون الطُّبول، وينفخون بالأبواق، ويطلقون الصَّرخات، لِمَ كلُّ هذا؟ لدفع الرَّواتب.

ويتابع قوله في الصفحة ٤٩ ذاتها: «إنَّ ظروف المعركة حقيقية تتلاقى كلُّها من حيث الجوهر عند أغلب المؤرِّخين المسلمين، إنَّما لم يأتِ ولا واحد منهم على ذكر تدخل المنصور هذا الغريب»، طبعاً، لأنها لا تستحق الذِّكر لأنَّها من نسج الخيال، ويعلِّق المؤلِّف قائلاً: «هل أراد ابن البطريق أن يسوِّد صحيفة المنصور ودوره، فجعله سبب أكبر هزيمة لحقت بالجيش البيزنطي؟ قد يجوز، وقد نقل ابن العميد على حسب عادته رواية ابن البطريق كما هي، ومن المرجح أن يكون المنصور أقام العراقيل في سبيل دفع المال الضَّروري للجيش، أو أن صناديق الخزينة المؤتمن عليها كانت فارغة، بسبب احتلال الجيوش العربية لدمشق، على أنَّه لن يلعب الدَّور المشين الذي نسبه إليه ابن البطريق، وبعده ابن العميد»[1].

(١) جرجس بن العميد (-٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، مؤرخ من كتاب =

وابن البطريق الَّذي يهاجمه الإكسرخوس جوزيف، هو سعيد بن البطريق (-٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، طبيب مؤرِّخ من أهل مصر، وأُقيم بطريركاً في الإِسكندرية، وسُمِّي أنتيشيوس سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، وهو أوَّل من أطلق اسم (اليعاقبة) على السُّريان الذين اتَّبعوا تعاليم يعقوب البرادعي المتوفى ٥٧٨م، له (نظم الجوهر) في التَّاريخ، و(الجدل بين المخالف والنَّصراني)، و(علم وعمل) كُنَّاش في الطِّب[1].

* * *

وفي الصَّفحة ٤٧ يقول:

«وأتى الخليفة عمر ليشرف على البلاد المغلوبة، ويقرِّر مع أبي عبيدة ومستشاريه الخطَّة الواجب اتِّباعها

= النَّصارى السُّريان، له كتاب (المجموع المبارك) جزآن، الأوَّل في التَّاريخ القديم إلى ظهور الإسلام، والثاني تاريخ المسلمين، من بدء الإسلام إلى عصر الملك الظاهر بيبرس (الأعلام ٢/ ١١٦).

(١) الأعلام ٣/ ٩٢.

في المناطق الَّتي فتحها، ويعيد النَّظر في المعاهدات، ويحدِّد واجبات المنتصرين والمغلوبين وحقوقهم، وعقد فيها [في الجابية]، ورأس اجتماعات دامت ثلاثة أسابيع، تداول في أثنائها مع الزُّعماء العرب تنظيم الفتح الجديد، وأسند إلى يزيد بن أبي سفيان منصب قائد جند دمشق».

أتى عمر ﷺ ليتفقد أحوال البلاد المحرَّرة، والخطَّة الواجب اتِّباعها في المناطق التي تمَّ فتحها قرَّرتها بنود اتِّفاقيات الصُّلح (المعاهدات)، فهي التي حدَّدت واجبات المنتصرين والمحرَّرين وحقوقهم، ويزيد (قائد جند دمشق) أسند إليه هذا المنصب أبو بكر الصِّديق ﷺ، وأقرَّه عمر من قبل اليرموك وفتح دمشق.

وقال على لسان خالد بن الوليد: «قال خالد بن الوليد: (سورية تشبه جملاً راقداً مرتاحاً)». دون توثيق أو عزو لمصدر! وكأنَّه يريد أن يقول: استولى الفاتحون على ضعاف راقدين نائمين دون مقاومة، فالنَّصر الحاسم لا بسب قوَّتهم وإيمانهم وخططهم، بل عجز الراقدين ليس غير.

وقال في الصَّفحة ٤٩:

«أثبت الأب لامنس أنَّ (المولى الحليف)، وحتَّى (المولى المُعْتق) - أي المحرَّر - كانا يحتفظان بدينهما أحياناً على الرَّغم من ولائهما للخليفة، ومما يدحض تخرُّصات ابن عساكر وابن شاكر، تلك الألقاب التي خلعها المؤرخ تيوفانس عن سرجون بن المنصور، إذ أسماه (المسيحي كل المسيحي)، فضلاً عن تلك التَّربية المسيحيَّة الحقَّة التي أعطاها لابنه يوحنَّا، والتي أشاد بها كلٌّ من كتب سيرة الدِّمشقي، لو كان سرجون بن المنصور مسلماً لما بنى لأبناء دينه كنيسةً بعد فتح دمشق، ولما كان ابنه يوحنا الدِّمشقي ذلك القدِّيس العظيم الذي أجمعت على تكريمه الكنيسة جمعاء على اختلاف طقوسها - مذاهبها -».

الأب هنري لامَّنْس اليسوعي، الذي يستشهد به الإكسرخوس كثيراً، كما في الصَّفحات ٤٩، ٥٠، ٥٥، ٥٦، ٦٤، متوفَّى سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، بلجيكي المولد، فرنسي الجنسيّة، من علماء الرُّهبان اليسوعيِّين، استقرَّ في بيروت فتولَّى إدارة جريدة

(البشير) مدَّة، ودرَّس في الكليَّة اليسوعيَّة، وصنَّف كتباً عن العرب والإسلام بالفرنسيَّة، وكتباً بالعربيَّة، ومات في بيروت[1].

لامَّنْس هذا، استاء منه قومه ونبَّه مراراً لهول افتراءاته وادعاءاته، وطلبوا منه التَّخفيف والتَّلطيف ليصدِّق النَّاس ما يدَّعيه، وإلَّا فردَّة الفعل عنيفة، والتَّكذيب لما يقول ويكتب سمة ما قدَّم لهول ما افترى.

«وممَّا يدحض تخرُّصات ابن عساكر» عبارة لا تليق بابن عساكر، وقد عولجت من قبل.

وليته وثَّق ادعاءه «لو كان سرجون بن المنصور مسلماً لما بنى لأبناء دينه كنيسةً بعد فتح دمشق»، أين نجد توثيق هذا الادِّعاء؟

---

(١) الأعلام ٨/ ٩٩، وفي (موسوعة المستشرقين) للدكتور عبد الرحمن بدوي٣٤٧: «راهب يسوعي شديد التَّعصُّب ضد الإسلام، يفتقر افتقاراً تامّاً إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النُّصوص وفهمها، ويعدُّ نموذجاً سيِّئاً جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين» وفي الصفحة ٣٤٩: كتبه ليست لها أيُّ قيمة علميَّة، لأنها ممزوجة بوجهات نظره المليئة بكراهيته للإسلام في غلٍّ منقطع النَّظير.

أمَّا لقب القديس العظيم «الذي أجمعت على تكريمه الكنيسة جمعاء على اختلاف طقوسها»، فقد منحه إيَّاه المؤرِّخون المسيحيُّون و(السنيكسارات)[1]، بعد أن أطنب المجمع المسكوني السَّابع (نيقية الثَّاني عام ٧٨٧م) في مدحه والثناء عليه، بعد موته عام ٧٤٩م، فهل يجعله هذا اللَّقب (الممنوح) سيداً متفرِّداً في تسيير أمور الدَّولة الأُمويَّة، المتصرِّف في شؤونها، الطابع لها بطابعه المسيحي السُّوري العربي؟

وفي الصفحة ٥٠ قال عن معاوية:

«استمال إليه سكان الإقليم [سورية] وأخذ يعتمد على القبائل السُّوريَّة رعايا الغساسنة سابقاً وحلفائهم، وعهد إلى السُّوريِّين الَّذين اقتبسوا من الثَّقافة المسيحية وفنون بيزنطيَّة وأساليبها الشَّيء الكثير، أن يدرِّبوا العرب الرُّحَّل الفاتحين الذين أتوا سورية على الحياة السِّياسيَّة والنِّظام الإداري، فألَّف السُّوريون المسيحيُّون العرب كوادر الجيش الأُموي، وعلَّموا الجنود (طاعة

(١) من يكتبون روايات سيرة القدّيسين.

أهل الشَّام) الَّتي طالما وصفها المؤرِّخون العرب، وأشاد بها الحجَّاج في خطبه إلى أهل العراق».

«فألَّف السُّوريُّون المسيحيُّون العرب كوادر الجيش الأُموي»، وما علينا إلَّا التَّصديق والثِّقة بما يكتب الإكسرخوس جوزيف، مع أنَّه:

كتب عثمان ﷺ إلى معاوية يسأله أن يمدّ حبيب بن مسلمة الفهري من أهل الشَّام والجزيرة قوماً «ممَّن يرغب في الجهاد»[1]، فأرسل إليه معاوية ألفي رجل..

ولَّى هشامُ مسلمة بن عبد الملك أرمينية، ووجَّه على مقدِّمته سعيد بن عمرو بن أسود الحرشي، مع العديد من أشراف الشام[2]، ويذكر الطَّبري أنَّ هشاماً دعا سعيداً الحرشي وسأله رأيه، فاقترح عليه إرساله على أربعين دابَّة من دواب البريد، ثمَّ يبعث إليه كلَّ يوم أربعين رجلاً، ثمَّ يكتب إلى أُمراء الأجناد بموافاته، ففعل ذلك هشام، وسار الحرشي، «فكان

(١) فتوح البلدان ٢٠٠.

(٢) فتوح البلدان ٢٠٨.

لا يمرُّ بمدينة إلَّا ويستنهض أهلها، فيجيبه من يريد الجهاد».

وفي فتح قبرص، أذن عثمان ﷺ بغزو قبرص، «شريطة ألا يأخذ معه في غزوته هذه إلَّا من اختار الغزو طائعاً».

فهل السُّوريُّون المسيحيُّون رغبوا بالجهاد طائعين، فشكَّلوا كوادر الجيش الأُموي؟ وما وصل الجيش الأُموي إلى صقع إلَّا ويبني مسجداً، من أرمينية والرّان إلى المغرب الأقصى، مع أنه كان من الطَّبيعي بناء الكنائس على يد الجيش الأموي المسيحي، لا بناء المساجد!

وفي كلِّ البقاع التي فُتحت؛ تمَّ الفتح وتوطَّد سلطان المسلمين، غريب، لماذا لم يوطِّد هذا الجيش المسيحي سلطان المسيحيَّة؟ فجند الشَّام هم الذين فتحوا الشَّمال الإفريقي، وفي فتوح السِّند مع محمد بن القاسم الثقفي كان معه ستة آلاف من جند الشَّام، كما اشترك أهل الشَّام مع يزيد بن المهلَّب في فتح

منطقة جرجان ودِهِستان، ستون ألفاً من أهل الشَّام، ونجد إشارات لوجود جند من أهل الشَّام في بلخ، وفي خراسان كما في الطَّبري، ثمانية آلاف فارس من أهل الشَّام وغيرهم، سيَّرهم نصر بن سيَّار والي خراسان بقيادة سلم بن أحوز..

وانضمَّت جماعات من الرُّوم التي رغبت في الإسلام إثر معركة اليرموك، وبعد فتح قيسارية إلى عمرو بن العاص من الشَّام، وسارت معه إلى مصر لفتحها[1].

ومن درس التَّاريخ الأُموي يلاحظ أنَّ قادة الفتح كانوا يستعينون في مناطق الثغور فقط، المناطق المعرَّضة لهجوم مباغت من القوى البيزنطيَّة بالمعاهدين، مقابل إسقاط الجزية، كما فعل حبيب بن مسلمة الفهري مع الجراجمة، «وبقيت الاستعانة بالمعاهدين مقصورة على مناطق الثُّغور في خلافة بني أُميَّة»[2].

---

(١) فتوح مصر، ابن عبد الحكم ١٢٩.
(٢) الشَّام في صدر الإسلام ٣٤٤.

ويتساءل المرء: جيش الفاتحين المسلمين الذي جاء من جزيرة العرب فاتحاً لبلاد الشَّام، ما مصيره؟ أين ذهب وتلاشى؟ وهل ألَّف السُّوريُّون المسيحيُّون العرب كوادره؟!

ويقول في الصَّفحة ٥١: «لم يتردَّد [معاوية] في الاعتماد على الجيوش العربيَّة المسيحيَّة للدِّفاع عن مركزه المهدَّد من علي، وعهد إلى مسيحيِّين تميَّزوا بحكمتهم ورؤيتهم وتفوُّقهم في العلوم الإداريَّة والماليَّة على عرب الحجاز في أن يحتلُّوا المناصب الرَّفيعة في الدولة».

خيال، حتى جيش معاوية في صفين ضد علي ﷺ لم يسلم من افتراءات الإكسرخوس جوزيف نصر الله، ويتابع في الصفحة ٥٢ و٥٣ قائلاً:

«فعقد النِّيَّة على إنشاء أُسطول قويٍّ يساعده في ذلك بحَّارة لبنان المسيحيُّون، فجهَّزوا أُسطولاً، كانت باكورة أعماله السَّلب على شواطئ قبرص سنة ٦٤٩م، ثمَّ بعد مرور خمس سنوات ٦٥٤م، احتلَّ العرب جزيرة رودس، وبعد هذا بقليل، حطَّموا على سواحل

ليدية القوى البحريَّة البيزنطيَّة الَّتي كانت تحت إمرة الإمبراطور قنسطان الثاني نفسه».

الفتح كان على أيدي المسيحيِّين لنشر الإسلام، كيف؟ هكذا قال الإكسرخوس، وباكورة أعمال الأُسطول المسيحي نهب شواطئ قبرص المسيحيَّة!!

* * *

وفي الصَّفحة ٥٣ يدَّعي قائلاً:

«و[كان] التَّبذير ضارباً أطنابه في الأقاليم الخاضعة لسلطة علي بن أبي طالب».

افتراءٌ عكسه هو الصَّحيح، فحرص علي ﷺ معروف مشهور.

* * *

وقال في الصَّفحة ٥٤:

«فأنشأ [معاوية] وزارة مالية، وألحق بها (ديوان المقاتلة)، وجعل على رأس هذه الوزارة الجديدة

سرجون بن منصور والد يوحنا الدِّمشقي، فكان عليه أن يحدِّد الضرائب المفروضة جبايتها، كما كان يفعل على عهد بيزنطة، فكان يفرض جزية الرَّقبة أو خراج الأعناق على غير المسلمين، وضريبة الأرض أو الخراج على جميع الرَّعايا..».

وفي الصَّفحة ٥٤: «وقد أنشأ عليها ضريبة العشر أو (الزَّكاة)».

سرجون بن منصور والد يوحنا الدِّمشقي هو الذي يحدِّد الضرائب المفروضة لكي تجبى، كما كان يفعل على عهد بيزنطة، الجزية، الخراج.. فأين نظام الإسلام المالي؛ الذي حدَّد الجزية والخراج، والذي طُبِّق أيَّام الرَّاشدين؟

سرجون مشرِّع في ماليَّة دولة بني أُميَّة، هكذا أراده الإكسرخوس، الذي لا يعرف ما ضريبة العشر، فجعلها الزَّكاة، مع أنَّ زكاة مال المسلم شيء، والعُشر شيء آخر مختلف كليّاً.

العشور: أشبه بما نسمِّيه اليوم بالرُّسوم الجمركيَّة،

كانت تؤخذ من التُّجَّار المسلمين ربع العشر - ربع عشر بضائعهم التي يأتون بها من خارج حدود الدولة الإسلاميَّة - ومن أهل الذِّمَّة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر[1].

فالَّذي لا يفرِّق بين العشر والزَّكاة؛ يكتب ويحلل وينظِّر!

* * *

وجاء في الصَّفحة ٥٨:

«المؤرِّخون العرب لم يعترفوا له [ليوحنا الدِّمشقي] بهذه المكانة، وهذه الصِّفة [وزير الخليفة الأوَّل]».

وهذا أمر طبيعي، لأنَّه لم يكن وزير الخليفة الأوَّل، ولو كان لذكروه بأمانة.

* * *

(١) الخراج ١٦١.

وقال في الصَّفحة ٦١ :

«لم يعانِ المسيحيُّون كثيراً من تغيُّر الأوضاع خلال عشرات السِّنين الأولى التي عقبت الفتح، لا بل كانت هذه الحقبة مصدر نعمة ورخاء لأتباع بعض المذاهب كاليعاقبة مثلاً، الذين نعموا بحكم مستقل، وحظي رؤساؤهم الدِّينيُّون بامتيازات ماديَّة وقضائيَّة كثيرة، أجل، قد حدثت مجازر، وأُحرقت كنائس، وقامت على الحكم أقليَّة لا تشارك الأكثريَّة المسيحيَّة عقيدتها، على أنه لم يكن في الأُفق ما ينبئ بمضايقات ومناورات واضطهادات الحقب اللاحقة، إذ لا ننسى أن العرب السُّوريِّين المسيحيِّين ساعدوا إخوتهم قاطني الصَّحراء في حروبهم ضد بيزنطة، ولهم بالتَّالي حقٌّ - إن لم يكن في عرفان بدو الحجاز بجميلهم - فعلى الأقل ببعض الحقوق التي يتمتَّع بها آخرون يدينون بدينهم».

«قد حدثت مجازر»، أين؟

«وأُحرقت كنائس» ما أسماؤها؟ ومن أحرقها؟

من ذبح ودمَّر وأحرق، مادامت الإدارة والجيش والأسطول من المسيحيِّين؟!، والإكسرخوس يقول بعد صفحة واحدة (الصفحة ٦٢): «ولبثت سورية بلداً مسيحيّاً.. وحافظت سورية على طابعها كبلد مسيحي حتى نهاية الحقبة الأُموية»، فالبلد المسيحي يرتكب المجازر ضد المسيحيين، ويحرق الكنائس؟ هكذا يكتبون تاريخنا.

وجاء في الصَّفحة ٦٣ :

«وأراد عمر أن يرغم التَّغلبيِّين على ألا يعمدوا أولادهم، فرفضت هذه القبيلة الأبيَّة، ممّا حمل عليّاً على القول: إنِّي أعلم ما أفعل بهذه القبيلة المسيحيَّة، فبما أنَّهم مصرُّون على عماد أولادهم، سأقتل محاربيهم، وأبيع ما تبقَّى منهم عبيداً».

أين نجد توثيق هذا الكلام؟

وهل قتل علي ﷺ محاربيهم، وباع ما تبقَّى منهم عبيداً؟

وهل هذه من صفات وأعمال الفاتحين التي ربَّاهم عليها الإسلام؟

ويقول في الصَّفحة ذاتها: «وهكذا قد انتحل الإسلام فروعٌ من بني كلب وجذام وعاملة، لا عن عقيدة أو ضغط، بل بسبب التَّقارب العرقي فحسب، فقد انتحل هؤلاء الإسلام، لا إيقاناً بالإسلام، بل انحيازاً للفكرة العربيَّة الكبرى، فكرة تفوُّق جنسهم التي كان الإسلام يظلِّلها آنئذ برايته المظفَّرة».

الانتحال: الادِّعاء كما في لسان العرب، فمتى ارتدوا وعادوا إلى المسيحية، مادام الأمر مؤقتاً، (انتحال)؟

وفي الصَّفحة ذاتها أيضاً: «قال عمر: أولئك سيأكلهم المسلمون - يقتاتون من تعبهم - ماداموا أحياء، فإذا هلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم، وهذا ما دفعه على الأرجح إلى أن يوصي خليفته بالذِّمِّيِّين لأنَّهم سند عيالهم».

لا يسوق أيَّ دليل نقلي، ولا يرجع إلى مصادر، إنَّه يلقي الكلام جزافاً دون ذكر مصدر، حاطب ليل، تخبُّط دون أدنى سند أو برهان عقلي.

وفي الصَّفحة ٦٤ يتبنَّى رأياً للأب لامَّنْس:

«نعتقد أنَّ عدد المسلمين في آخر القرن الأوَّل الهجري لم يتجاوز متي ألف على أربعة ملايين سوري تقريباً، ونستطيع أن نضيف إلى هذا العدد بعض آلاف من الحديثي العهد في الإسلام، لنحصل على مجموع المسلمين في سورية في تلك الحقبة».

هنري لامَّنْس، الذي «يفتقر افتقاراً تامّاً إلى النَّزاهة في البحث، والأمانة في نقل النُّصوص وفهمها، ويعدُّ نموذجاً سيئاً جدّاً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين.. بل يلقي الكلام جزافاً.. ويخبط دون أدنى سند أو برهان عقلي»، «وأبشع ما فعله.. هو أنه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها، وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها، فوجدت أنه إمَّا أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب، أو يفهم النَّصَّ فهماً ملتوياً خبيثاً، أو يستخرج إلزامات بتعسُّف شديد يدل على فساد الذِّهن وخبث النِّيَّة»، كما يقول الدكتور

عبد الرحمن بدوي[1]، يتَّخذه الإكسرخوس جوزيف مدير إحصاء، يقدِّم أرقاماً كأنَّه قام بالإحصاء بنفسه، ويعتمدها لهوى وحقد على الإسلام والمسلمين.

* * *

وفي الصَّفحتَيْن ٦٥ و٦٦ يقول عن معاوية:

«وأتاح لابنه يزيد أن يتردَّد بين جماعات المسيحيِّين - إلى الكنائس والأديرة - ولما طعن في السِّنِّ، أُصيب بالأرق، فكان يفيق كلَّ ليلة على صوت أجراس كاتدرائيَّة القديس يوحنا المجاورة لقصره (الخضراء)، ولم يشأ أن يسكتها بالعنف، بل لجأ إلى الحيلة، وإذ لم تنجح، اكتفى بها، وقد راودته فكرة تحويل الكنيسة الثِّيودوسيَّة (كاتدرائيَّة القديس يوحنا) إلى مسجد، إلا أنَّه لم يتجاسر أن ينفِّذ فكرته، وكذلك عبد الملك، فقد امتنع فيما بعد عن القيام بمثل هذا العمل للأسباب السِّياسيَّة نفسها».

(١) موسوعة المستشرقين ٣٤٧ و٣٤٨.

معاوية من دهاة العرب الأربعة[1]، لو أراد شيئاً وصل إليه، ولكن إسلامه هو مكيال أفعاله، ولو أراد لتجاسر.

* * *

وجاء في الصفحة ٦٦ ما يفضح كذبه وينقضه، قال:

«اعتمد [معاوية] على الجيوش العربيَّة المسيحيَّة في موقعة صفِّين، على الرَّغم من استنكار علي، ولم يجد حرجاً في إسناد أهمِّ المراكز الإداريَّة إلى المسيحيِّين كالسِّرجونيِّين وابن آثال طبيبه الخاص، وقد نعم بحظوة الخليفة أطبَّاء مسيحيُّون آخرون أمثال أبي الحكم وابنه الحكم».

ويقول في الصَّفحة ذاتها: «وقد زوَّد اليمنيُّون الجيش السُّوري بأوفر عدده، وانتقى الخليفة منهم بحارة أسطوله، ونشط حماسهم بمنح ماليَّة».

(١) أسد الغابة ٥/٣٤٨.

وبغض النَّظر عن ادِّعاء المؤلِّف النزيه أن علياً استنكر على معاوية اعتماده على الجيوش العربيَّة المسيحيَّة في صفين، لأنه ادِّعاء لا دليل عليه، يتساءل القارئ: وهل اليمنيُّون الذين زوَّدوا جيش معاوية «بأوفر عدده، وانتقى الخليفة منهم بحَّارة أسطوله»، كانوا من المسيحيِّين أيضاً؟ وهل بعد هذا التَّناقض تناقض وافتراء؟

* * *

وفي الصفحة ٦٧:

«وهكذا قضى يزيد صباه بين ظهراني أخواله المسيحيِّين زعماء قبيلة كلب، في صحبة أترابٍ مسيحيِّين، كالأخطل والمنصور بن سرجون، أي القديس يوحنا الدمشقي، وقد تحرَّر علناً من أحكام الشَّريعة الإسلامية، حتَّى اتهمه بعض المؤرخين المسلمين بانتحال المسيحيَّة، وقد عهد بتثقيف ابنه إلى راهب مسيحي، ويخبرنا ابن العبري أنه أبقى حكاماً مسيحيِّين على مقاطعات كثيرة، والرُّها خصوصاً، فقد

ظلَّت هذه المدينة مدَّة طويلة يحكمها أنستانس بن أندراوس».

المنصور بن سرجون، أي القديس يوحنا الدِّمشقي، هل كان في دمشق عاصمة الخلافة يسيِّر أُمور الدَّولة، أم كان في البادية مع يزيد عند أخواله المسيحيِّين؟

وتحرُّر يزيد علناً من أحكام الشريعة الإسلامية سينقضه الإكسرخوس نفسه حينما سيتكلَّم بإسهاب على حجِّ يزيد مع الأخطل ويوحنا الدِّمشقي!!

واتَّهم بعض المؤرِّخين المسلمين يزيد بانتحال المسيحية، مثل مَن مِن المؤرِّخين؟

وما اسم هذا الرَّاهب المسيحي الذي ثقَّف يزيد.

ويخبره ابن العبري: «أنَّه [معاوية] أبقى حكَّاماً مسيحيِّين على مقاطعات كثيرة، والرُّها خصوصاً، فقد ظلَّت هذه المدينة مدَّة طويلة يحكمها أنستانس بن أندراوس»، وعدت إلى أهم كتابين يتناولان تسلسل الخلفاء المسلمين وأُمراء الأمصار: معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التَّاريخ الإسلامي، لزامباور،

والدُّول الإسلامية، لستانلي لين بول، فلم أجد حاكماً واحداً مسيحياً زمن الأُمويين، لا في المدينة، ولا في مصر، ولا في البصرة، ولا في الكوفة، ولا في فارس، ولا في نيسابور.. و(أنستانس بن أندراوس) هو أسقف الرُّها فقط، كما يذكر الإكسرخوس نفسه في الصفحة ٨٩.

* * *

وفي الصَّفحة ٦٨ يذكر:

«إنَّ كتاب الأغاني حافل بقصص مداعبات عبد الملك والشاعر النَّصراني [الأخطل]».

ومن يعد إلى كتب الجرح والتعديل يجد أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني رجلاً غير مأمون، لا يثق المؤرِّخون المدقِّقون به، ولا يثقون برواته، ففيهم من هو مشهور بكذبه، مطعون بعدالته، وقد عكف وليد الأعظمي يرحمه الله على كتاب الأغاني أكثر من سنتين، يدقِّقه ويمحِّصه، فكان كتاب:

(السَّيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني)، جمع فيه أطرافاً من سقطه ومعايبه ومخازيه ومساوئه، وكشف عن المقاصد الخفيَّة لشعوبيَّة الأصفهاني وكذبه وافترائه وادِّعاءاته التي تُقدَّم تحت عنوان الأدب والسَّمر والمؤانسة[1].

ومن يقبل الأغاني ويعتمده مصدراً، ويستشهد بما جاء فيه، ساذج يهرف بما لا يعرف.

* * *

وفي الصفحة ٦٩ سوء فهم وطعن مفضوح، حيث يقول:

«لمَّا بلغ الخليفة [عبد الملك] الَّذي نشأ في أوساط المدينة المتزمِّتة، حيث كان يُعدُّ من أشهر الفقهاء، أنَّ أباه أضحى أمير المؤمنين، أغلق القرآن وهو يقول: لم يعد بيننا بعد الآن من جامع».

(١) وفي كتاب (دمشق ٩٣هـ الشمس في ضحاها) بحث مطوَّل عن أكاذيب الأصفهاني.

والخبر في البداية والنِّهاية ٩/ ٦٣ : «لما سُلِّم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف، فأطبقه وقال: هذا فراق بيني وبينك» يتأسَّف لاشتغاله بأُمور الرَّعيَّة، وشؤون الدَّولة المترامية الأطراف، فإن كانت تلاوة القرآن الكريم عبادة، فالعدل في الرَّعيَّة وتسيير أُمور الأمة بما يرضي الله عبادة أيضاً.

* * *

وفي الصَّفحة ٧٠ يقول:

«ولما مات معاوية؛ قامت المدينة تدعو بخلع يزيد، فناصره التَّغلبيُّون، وكان لمناصرتهم النَّصيب الأوفر في قمع العصيان، فكانوا كالسُّم القاتل لأهل المدينة، وكان الصَّليب مرفوعاً في المقدِّمة على راية القدِّيس سرجيوس، حسب شعر الأخطل، ولما يحجم الأخطل عن التَّذكير بدور قبيلته هذا في قصيدته الشَّهيرة (خفَّ القطين) الموجَّهة إلى عبد الملك:

وقد نُصِرْت، أمير المؤمنين، بنا
لما أتاك ببطن الغوطة الخَبَرُ

يعرِّفونك رأي ابنِ الحُباب وقد
أضحى وللسَّيف في خيشومه أَثَرُ
لا يسمع الصَّوت مستكّاً مسامعه
وليس ينطقُ حتّى ينطِق الحجَرُ»

أين الصَّليب في أبيات الشِّعر الَّتي أوردها شاهداً على «وكان الصَّليب مرفوعاً في المقدِّمة على راية القديس سرجيوس»؟ إنَّه الادِّعاء دون دليل نقلي أو عقلي.

ويتابع ادعاءه في الصَّفحة ٧٣ قائلاً: «لقد مشى أنصار الأخطل إلى ميدان الحرب يتقدَّمهم الصَّليب وراية القدِّيس سرجيوس شفيعهم، لكن الانكسارات الَّتي حلَّت بالعرب في إسبانية والأناضول، ووباء الطَّاعون الذي فتك بالمعسكرات العربيَّة وأفرغها، أرغمت الحكومة على سدِّ هذا الفراغ في الجيش بتعبئة جميع المواطنين المسيحيِّين، ومن هؤلاء اختار الفاتحون بحَّارة وضبَّاطاً، ونقباء وربابنة لقيادة أساطيل الحرب».

خلط وكذب واضطراب.. جيش الأخطل إلى ميدان الحرب يتقدَّمهم الصَّليب وراية القدِّيس سرجيوس شفيعهم، فكانت الانكسارات التي حلَّت بالعرب، علماً أنَّ جيشهم مسيحي كما تكرر مراراً، وفتك الطَّاعون بالمعسكرات العربيَّة، وهي مسيحيَّة، فأُرغمت الحكومة على سدِّ هذا الفراغ في الجيش بتعبئة جميع المواطنين المسيحيِّين، ومن هؤلاء اختار الفاتحون بحَّارة وضبّاطاً، ونقباء وربابنة لقيادة أساطيل الحرب.

لقد قال في الصَّفحة ٥٠: «فألَّف السُّوريُّون المسيحيون العرب كوادر الجيش الأُموي»، وفي الصَّفحة ٦٢: «ولبثت سورية بلداً مسيحيّاً، وحافظت على طابعها كبلد مسيحي حتّى نهاية الحقبة الأُمويَّة».

فالانكسارات حلَّت بمن؟ والطَّاعون فتك بمن؟ ووصول العرب إلى إسبانية والأناضول، بمفردهم أم بمعونة المسيحيين؟

ووفق النّص الوارد في الصَّفحة ٧٣: وصل

المسلمون في فتوحهم إلى إسبانية والأناضول، ثمَّ حلَّت الانكسارات - دون ذكر مواقعها وما هي - فَسُدَّ الفراغ في الجيش بتعبئة جميع المواطنين المسيحيِّين برّاً وبحراً، وكيف يقبل القارئ هذا، الذي يتعارض مع ما ورد في الصفحتين ٥٠ و٦٢ مثلاً؟

* * *

وعن قزما الصِّقلّي أُستاذ يوحنا الدّمشقي، يقول في الصَّفحة ٧٦:

«وكان قزما رجلاً كاملاً طويل الباع في العلوم، وصل إلى دمشق مع فريق من الأسرى المعدِّين للبيع، وقد ألقى القراصنة عليهم القبض، فيقطعون رأس كلِّ أسير لا يباع، وكان المسيحيُّون المعدُّون للإعدام ينطرحون على قدمي قزما.. إلخ.

لقد أنكر بعض الكتبة على غير حقٍّ صحّة هذه الرواية بكاملها، لا غرو أن يكون فيها بعض المبالغات والتَّخيلات الجامحة في التَّفاصيل والإخراج، إلا أنَّ جوهرها صحيح، فليس من

المستبعد أن يكون راهب صقلّي مثقّف أسره القراصنة وأتوا به إلى دمشق فافتداه سرجون، وعهد إليه بتثقيف ابنه وتربيته، ألم يطلعنا تيوفانس على هجوم العرب على جزيرة صقليّة سنة ٦٥٥م، وأنّ أسرى كثيرين منهم استوطنوا مدينة دمشق؟ وفي سنة ٦٦٩م هاجم أسطول عربي مدينة سيراكوزة في صقلّيّة ونهبها».

أولاً: ما عرف العرب المسلمون القرصنة في تاريخهم، القرصنة مهنة أوربيّة خالصة.

ثانياً: هؤلاء القراصنة الذين يذكرهم الإكسرخوس مسيحيون، ألم يقل في الصّفحة ٧٣: «ومن هؤلاء اختار الفاتحون بحّارة وضبّاطاً، ونقباء وربابنة ونوتية لقيادة أساطيل الحرب»؟

كذوب ونسّاء، يفضحه إفكه.

* * *

وعن الثقافة في عهد الأمويّين، يقول في الصفحة ٧٩:

«لم يعرف الإسلام قبل القرن الرّابع الهجري معاهدة كبرى بالثّقافة العالية، بحسب شهادة المقريزي، وكانت التربية الثّقافيّة هاجس بني أُميّة أكثر العرب ثقافة، ولاحقهم هذا الهاجس قبل احتكاكهم بالشّعوب المسيحيّة المثقّفة بثقافة الإمبراطوريّة البيزنطيّة الرّفيعة».

الاحتكاك بالشّعوب المسيحيّة المثقفة بثقافة الإمبراطورية البيزنطيّة الرّفيعة، لو أثّر بالفاتحين، لما أشادوا حضارة عالميّة، ولما انتشرت الجامعات من بغداد إلى قرطبة، ويكفينا القول: إن (الثّقافة البيزنطيّة الرّفيعة) يُقدّمها لنا الخبر التّالي:

لما فتح المسلمون جزيرة قبرص لم يفرضوا عليها جزية ولا ضرائب ماليّة، ولكن طلب الخليفة العبّاسي المأمون (-٢١٨هـ/ ٨٣٣م) منهم أن يوجّهوا إليه عوضاً عن ذلك كتباً من كتبهم.

جمع ملك القبارصة الكتب التي كان آباؤه وأجداده أقفلوا عليها بالأقفال الثّقيلة لئلا يصل إليها أحد فيضل

بها ويكفر خارجاً عن الملَّة، ثمَّ وجهها ليتخلَّص منها إلى المأمون، فكانت خمسة أحمال من المخطوطات في كلِّ العلوم، من طبٍّ وحكمة وفلك ورياضيات وجغرافية.. وغير ذلك.

وفرح بها المأمون وأمر بترجمتها الترجمة الدَّقيقة، وأغدق على التَّراجمة والعلماء عطايا وافرة، وكان يكافئ المؤلِّفين والمترجمين على كتبهم بوزنها ذهباً، ثمَّ أمر بوضعها في بيت الحكمة الَّذي امتلأ بالأسفار وتسنَّمت الحياة العبَّاسية آنئذ ذروة الحضارة في العلم، والإبداع، والغنى[1]..

* * *

ويقول في الصَّفحة ٨٤:

«وحول سنة ٦٧٠م حجَّ يزيد إلى مكة، نزولاً عند رغبة والده، وقد فرض عليه الحجَّ ليبعده عن حفلاته [الحفلات المجونيَّة الصفحة ٨٤ نفسها] وتسلياته،

---

(١) دور الكتب العربيَّة العامَّة وشبه العامَّة ٥٩.

ويقدِّمه للعالم الإسلامي الذي سوف يحكمه، وقد صاحب الأمير في رحلته هذه الأخطل رفيقه الملازم كما يذكر كتاب الأغاني للأصفهاني، ولم يكن لهذه الرِّحلة أية صبغة حجٍّ وتوبة، هل رافق يوحنا صديقه؟ الأمر غير مستبعد، لقد أوردت لنا قصَّة لاتينيّة غربية لحياة القديس، لا تخلو من الأساطير، إنَّ الدمشقي رافق الأمير سيده إلى مكَّة، إنَّ التفاصيل الَّتي تنقلها تجعلنا لا نثق بها، إلا أنَّ الإفادة تسترعي الانتباه».

ويتابع في الصَّفحة ٨٥ ويقول: «وزار يزيد والأخطل القدس الشَّريف، هل أراد الأمير أن يدلِّل بهذا عن حبِّه البنوي لأُمِّه ميسون المسيحيَّة ولصديقه؟ هل رافقت ميسون ابنها؟ نودُّ أن نعرف هل رافقته، وهل قاموا جميعاً بزيارة الأماكن المقدَّسة المسيحيَّة، التي زارها معاوية لدى إعلانه خليفة في المدينة المقدَّسة؟ هل انضمَّ يوحنا إليهم في هذه الزِّيارة؟ سؤال لا نستطيع الرَّدَّ عليه».

موضوعي نزيه، يثبت صحبة الأخطل ليزيد في حجِّه، ويشك بصحبة يوحنا الدِّمشقي «إلا أنَّ الإفادة

تسترعي الانتباه»، و«هل رافقت ميسون ابنها؟» سؤال موضوعي محقِّق «نودُّ أن نعرف هل رافقته في المدينة المقدَّسة؟ هل انضم يوحنا إليهم في هذه الزِّيارة؟ سؤال لا نستطيع الردَّ عليه» ولكن طرحناه فكرة للقارئ ليقول: من المحتمل.

لم يبقَ إلَّا البابا لم يرافقه في حجَّته!

وزيارة القدس الشَّريف بعد الحجِّ إلى مكَّة المكرَّمة لزيارة الأقصى الشريف، لا الأماكن المسيحيَّة المقدَّسة، واستمرَّت هذه الزِّيارات حتى الاحتلال ١٩٦٧م.

وليت الإكسرخوس لم ينسَ أن يدّعي، أن الأخطل دخل مكّة مع يزيد متقلِّداً صليباً من الذَّهب لتكتمل الصُّورة!

وهذه الصُّورة، وقوله: «ولم يكن لهذه الرِّحلة صبغة حجٍّ وتوبة»، يمزِّقها ذهاب يزيد على رأس جيش لمحاصرة القسطنطينيّة، ولو كانت صفاته كما يذكر الإكسرخوس «الحفلات المجونيَّة»، ما قاد حملة فيها عدد من كبار الصَّحابة، كأبي أيوب الأنصاري.

وجاء في الصَّفحة ٨٦ قوله:

«إنَّنا نستبيح لنفسنا أن نرى في دم الأجداد المسيحيِّين السَّائل في عروق يزيد سبباً لتلك المودَّة الظَّاهرة في تصرُّفات ابن ميسون نحو إخوة أنسبائه الكلبيِّين في الدِّين، وفي تلك الذِّكرى الطَّيِّبة الحميدة التي حفظها له الشَّعب المسيحي».

«إنَّنا نستبيح لنفسنا..» وهل هذه أوَّل استباحة، وآخر استباحة؟ لقد استباح من الافتراء لنفسه الكثير، إنَّ روح التَّسامح تجاه كلِّ الشُّعوب، والَّتي حملها الفاتحون سجيَّة في سلوكهم، لا يتصورها الإكسرخوس ولا يعرف التَّعامل معها، إنّه لا يتصوَّر هذه السَّماحة عقيدة وسلوكاً في حياة المسلمين، لأنَّه لا يعترف بالآخر، وإبادة الشُّعوب بوحشيَّة رافقت ما سُمِّي (الكشوف الجغرافيَّة) وتاريخهم في أمريكة ضد الهنود الحمر، وفي سواحل إفريقية، وفي أُسترالية ضد الأبورجيِّين، وفي الهند وجنوب شرق آسية والفلبِّين خير شاهد.

وتحت عنوان (منصب يوحنا الدِّمشقي في الإدارة الأُموية) في الصَّفحة ٨٧:

«لقد شغل يوحنا منصباً رفيعاً في الإدارة الأُموية، هذا ما أثبته ميخائيل الرَّاهب واضع سيرته، والتقليد الخاص بسير القدِّيسين، وبعض المؤرِّخين المسلمين، وهذا ما تفترضه أعمال المجمع المسكوني السَّابع»(١).

وهكذا.. إنَّ توثيق شَغْله لمنصب رفيع في الإدارة الأُموية:

- هذا ما أثبته ميخائيل الرّاهب واضع سيرته.

- وبعض المؤرخين المسلمين، من هم؟ وما أسماؤهم؟

- وهذا ما تفترضه أعمال المجمع المسكوني السَّابع، وهذا المجمع هو مجمع (نيقية الثَّاني ٧٨٧م) حَرَم محاربي الأيقونات - الصُّور والتَّماثيل - فجعل

(١) هو (مسكوني) إذا دُعي إليه أساقفة العالم كلِّه، وانعقد برئاسة البابا، وإذا ضمَّ أساقفة منطقة أو بلاد أو طائفة فهو (وطني)، أو (طائفي).

من يوحنا الدِّمشقي قديساً لأنَّه حارب من حارب الأيقونات، ولا علاقة (بتقديسه) و«شغل يوحنّا منصباً رفيعاً في الإدارة الأُموية».

* * *

وفي الصَّفحة ٨٧ جاء ما يلي:

«إذا صحَّ [يشكِّك ويضعِّف] أنَّ سليمان بن سعيد مارس حقّاً إدارة الماليَّة، فيكون الدِّمشقي شغل وظيفة أَمين السِّرِّ الخاص، أمين سرِّ القيادة، أمَّا المقريزي فقد استعمل تعبير المؤرِّخ الأنطاكي نفسه، ويبدو أنَّ الكلمة الَّتي استعملها البطريرك يوحنا ونقلتها التَّرجمة العربية لعجائب العذراء للدَّلالة على وظيفة الدِّمشقي، نستطيع أن نعبِّر عنها بمستشار أوَّل، لكن فيها شيء من المبالغة، تنمُّ عن شخص عديم الخبرة بأعراف الحكم الأُموي الإداريَّة».

أوردنا هذا المقطع بما فيه من تشكيك، وعجائب للعذراء للدَّلالة على وظيفة الدمشقي، ونستطيع أن نعبِّر عنها بمستشار أوَّل، لنورد بعده فقرة في الصَّفحة التَّالية

مباشرة ٨٨: «هكذا، ولا نستطيع أن نتذرَّع بصمت المسعودي وابن عبد ربِّه وغيرهما عن ذكر وظيفة الدِّمشقي، لننكر صحَّتها ووجودها، لقد أغفل هؤلاء الكتبة أسماء بعض أُمناء سرِّ الخليفة»، ونتساءل: كيف يغفل لو كان له وجود في مثل هذا المنصب وهو (المستشار الأوَّل)؟ وصار المؤرِّخون عند الإكسرخوس كَتَبَة، لأنَّهم لم يذكروا يوحنا الدِّمشقي في المركز الَّذي يفصِّله له!.

* * *

ويورد في الصَّفحة ٨٨ قولاً لعبد الملك:

«لقد اختبرنا الموظَّفين المسلمين وتيقَّنا من قلَّة نزاهتهم واستقامتهم».

كلام بلا عزو ولا توثيق، لم يقله عبد الملك يقيناً، ولكنه خير دليل على أن الإكسرخوس يلقي الكلام جزافاً، دون قيمة علميَّة، وهذا برهان للنَّظرة المليئة بكراهية الإسلام والمسلمين، في غلٍّ منقطع النَّظير.

وتحت عنوان (تحوَّل في معاملة المسيحيِّين) في الصَّفحة ٨٩:

«وتميَّز محمد - أخو الخليفة عبد الملك - باضطهاده المسيحيِّين وتحمُّسه للإسلام، فأعدم معيداً زعيم العرب التَّغلبيِّين، لأنَّه رفض اعتناق الدِّين الإسلامي، وأحرق للسَّبب عينه زعماء الأرمن في الكنيسة الَّتي جمعهم فيها، وقتل أنستاس بن أندراوس أسقف الرُّها».

أين التَّوثيق والمصادر؟ خياله وحقده، هل من أخلاق المسلمين الفاتحين إعدام من يرفض اعتناق الدِّين الإسلامي؟ إذا صحَّ هذا، فمن أين جاء المسيحيُّون العرب الذين ينعمون بمواطنة سعيدة كاملة ويعيشون بوئام في المجتمعات الإسلاميَّة حتَّى يومنا هذا؟

أمَّا قتل أنستانس أندراوس أُسقف الرُّها، والذي ذكره في الصفحة ٦٧ مثالاً لبقاء حكام مسيحيِّين في مقاطعات كثيرة، فلخيانة واتَّصال بعدو خارجي قطعاً، إن تمَّ قتله على يد محمد بن مروان.

وأورد في الصَّفحة ٨٩ تاريخ الوليد بن عبد الملك، فقال كذباً وتعصُّباً وافتراء:

«أمَّا الوليد الأوَّل (٧٠٥ - ٧١٥م) فكان متصلِّب الرَّأي ومستبداً في الحكم، يتظاهر بالورع والحماس الدِّيني، خلافاً لمسلك أسلافه، كان جباراً، عنيداً، ظلوماً، غشوماً بحسب تعبير المسعودي، فثبَّت إصلاحات والده الإداريَّة، واستبدل نهائيّاً اللُّغة اليونانيَّة باللُّغة العربيَّة، وأنشأ نظاماً رسمياً كلُّه مضايقات للمسيحيِّين، وفي خلال سنوات عبد الملك الأخيرة، نُقِضَت الهدنة بين بيزنطة والخلافة، وعادت الحرب إلى وطيسها بين المملكتين، وأمر الخليفة بإعدام كلِّ الأسرى المسيحيِّين من جيوش بيزنطة الموجودين في سورية، وحاول أن يكسب إلى الإسلام قبيلة تغلب».

هذه سيرة الوليد كما أرادها الإكسرخوس، بينما سيرة الوليد في مصادرنا:

بايع النَّاس الوليد، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى

عليه، ثمَّ قال: «أيُّها النَّاس، لا مُقدِّم لما أخره الله، ولا مؤخر لما قدَّمه الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت، وقد صار إلى منازل الأبرار، وولي هذه الأُمَّة بالَّذي يحقُّ لله عليه؛ في الشِّدَّة على الذَّنب، واللِّين لأهل الحقِّ والفضل، وإقامة ما أقام الله من منازل الإسلام وإعلائه من حجِّ البيت. وغزو الثُّغور، وشنِّ الغارة على أعداء الله، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً.

أيُّها النَّاس، عليكم بالطَّاعة، ولزوم الجماعة، فإنَّ الشَّيطان مع المنفرد»[1].

كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشَّام أفضل خلفائهم، تمثِّل خلافته العصر الذَّهبي في الحكم الأموي، من حيث الفتوح ونشر الإسلام، ومن حيث الإصلاحات والبناء والتَّنظيمات الإداريَّة.

في أيَّامه، وضمن فتح منظَّم دائم رافقه نشر الإسلام، فُتحت سمرقند على يد قتيبة بن مسلم

(١) ابن خلدون ٣/٥٨.

الباهلي، والدَّيْبُل على يد محمد بن القاسم الثَّقفي، وطليطلة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد، فتضاعفت في السَّنوات العشر من حُكْم الوليد مساحة رقعة أرض الإسلام[1].

أمَّا التَّنظيمات والإصلاحات، فنذكر منها:

هو أوَّل من بنى المستشفيات في الإسلام للمرضى، وأوَّل من اتَّخذ داراً للضِّيافة، وأوَّل من بنى الأميال في الطُّرق، ووضع الصُّوى[2]، ووضع المنائر[3]، وأعطى النَّاس، وأعطى المجذومين ومنعهم من الخروج مع النَّاس (حجر صحِّي خوفاً من العدوى) ولكن أجرى لهم الأرزاق، وقال لهم: لا تسألوا النَّاس، وأعطى كلَّ مُقْعَد خادماً، وكلَّ ضرير قائداً.

وهو باني جامع دمشق الكبير (المسجد الأُموي)

---

(١) البداية والنِّهاية ٩/ ٩٥.

(٢) الصُّوَى (مفردها الصُّوَّة): حجارة توضع على قارعة الطَّريق تكتب عليها المسافة، ويثبَّت عليها الاتِّجاه.

(٣) المنائر: المآذن، والمنائر: العلم يجعل للطريق، أو الحدُّ للأرضين.

الَّذي لا يُعرف في الآفاق أحسن بناء منه، وهدم مسجد المدينة المنوَّرة والبيوت المحيطة به، ثمَّ بناه بناء جديداً، وصفَّح الكعبة المشرَّفة والميزاب والأساطين (السَّواري) في مكَّة، وبنى صخرة بيت المقدس، وعقد عليها القُبَّة[1].

كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز، واليه على المدينة المنوَّرة، في تسهيل الثَّنايا، وحفر الآبار في البلدان، وأمره أن يعمل الفوَّارة بالمدينة، فعملها وأجرى ماءها، فلمَّا حجَّ الوليد ورآها أعجبته، فأمر لها بقُوَّام يقومون عليها، وأمر أهل المسجد أن يستقوا منها، وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطُّرق، وعمل الآبار[2].

يعدُّ عصر الوليد بن عبد الملك صفحة جليلة خالدة في تاريخ الإسلام، لقد دخلت جيوشه الصِّين، وكانت سنة ٩٣هـ قمَّة مجده الخالد، حينما كانت يمناه في

---

(١) البداية والنِّهاية ٩/ ١٦٤، تاريخ الدُّول الإسلامية (الفخري) ١٢٧.

(٢) الكامل في التَّاريخ ٤/ ١٠٩.

الدَّيْبُل والسِّند وسمرقند، ويسراه في المغرب العربي وطليطلة والأندلس، وناظره نحو القسطنطينيَّة.

هذه سيرة الوليد في مصادرنا، ومن يدَّعي غير هذه الصُّورة المنيرة كذَّاب أشر.

* * *

وفي الصَّفحة ٩١ يحلم ويفتري قائلاً:

وفي زمن عمر بن عبد العزيز (عمر الثَّاني): «وقد سال الدَّم مدراراً من جديد، ولم يخفِ الشُّهداء من الاعتراف بدينهم وإيمانهم»، وفي الصَّفحة ذاتها ٩١: «لأنَّ عمر الثَّاني لم يكن عنيفاً ووحشي الطِّباع».

سال الدَّم مدراراً، وعمر بن عبد العزيز لم يكن عنيفاً ووحشي الطِّباع، فكيف لو كان عنيفاً ووحشي الطِّباع؟

ويقول في الصَّفحة ٩٣:

«وخَلَف عمر يزيدُ الثَّاني (٧٢٠-٧٢٤م) الغريب الأطوار، فإنَّه مع عطفه على اليعاقبة ومساندة

بطريركهم إلياس، كان ميالاً لبدعة محطِّمي الأيقونات، وقد أصدر مرسوماً بتحطيم الصُّور والصُّلبان في الكنائس، ودفعه إلى عمله هذا يهودي من مدينة اللاذقية، تنبَّأ له أنَّ خلافته تدوم أربعين سنة إن أباد الأيقونات والصُّلبان من المعابد، وما كاد ينفِّذ هذا المرسوم الجائر، حتَّى داهمت المنيَّة هذا العاهل الأموي، وقد خرق شروط الاتفاق لدى الفتح، إذ أثقل كاهل الرُّهبان والكنائس بالضَّرائب، وقد اتَّخذ إجراءات صارمة لإرغام العصاة والعاجزين عن الدَّفع، منها السَّجن، لابل التَّعذيب والتشهير على الخازوق، وصبُّ الزيت المغلي على الرَّأس».

هذه أخلاق محاكم التَّفتيش[1] وأعمالها تماماً، أسقطها على الإسلام والمسلمين، ولقد هدفت هذه المحاكم إلى تنصير المسلمين بإشراف السُّلطات الكنسيَّة، وبأشدِّ وسائل العنف، ولم تكن العهود التي

(١) محاكم التفتيش (أو محاكم التَّحقيق) شكِّلت بمرسوم بابوي في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨م.

قُطِعَت للمسلمين لتحول دون النزعة الصَّليبيَّة، التي أسبغت على سياسة إسبانية الغادرة ثوب الدِّين والورع.

ومن أنواع التَّعذيب: إملاء البطن بالماء حتَّى الاختناق، وربط يَدَي المتَّهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه، ورفعه وخفضه معلَّقاً، سواء بمفرده، أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمَّاة، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك.. والخازوق، وصبُّ الزيت المغلي على جنب، والماء المثلَّج على جنب آخر لمن يعذَّب، يُحرق نصفه، ويجمَّد نصفه الآخر، والتّابوت، وهو صندوق فيه مسامير كبيرة يدفن فيه المعذَّب وهو حيٌّ[١].

ويقول القِسُّ المعذِّب للمعذَّب: اعلم يا بني أنَّنا لا نرمي من وراء تعذيبك إلَّا الإقرار عن بقيَّة أهلك الَّذين لم يتنصَّروا، وبذا تُنْجي نفسك ونفوسهم، ونصعد بكم إلى السَّماء.

---

(١) محاكم التفتيش ٨٢، د. علي مظهر، طبعة ١٩٧٤م، تحت عنوان (محاكمة مسلم من بقايا المسلمين، وكيفية استجوابه أمام محكمة التفتيش).

وممّا يذكر، أنَّ هناك عذاباً اختص به النِّساء، وهو تعرية المرأة إلَّا مما ستر عورتها، وكانوا يأخذونها إلى مقبرة مهجورة، ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدُّون وثاقها، وهي على هذه الحالة السَّيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديديَّة، ويرخون شعرها فيجلِّلها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنَّما هي جنِّيَّة، ولاسيما إذا ما أَرخى اللَّيل سدوله، وتُتْرَكُ المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن، أو تموت جوعاً ورعباً[١].

تدخُّل في شؤون الكنيسة (الأيقونات) وإثقال كاهل الرُّهبان والكنائس بالضَّرائب وسجون، وتعذيب والتَّشهير على الخازوق، وصبُّ الزيت المغلي على الرأس، أخلاق قوم الإكسرخوس، وهو يفتري بلا برهان، بدليل ما سبق، وبدليل أن الرُّهبان وكنائسهم معفاة من أيِّ ضريبة.

---

(١) محاكم التَّفتيش ٩٣.

وفي الصَّفحة ٩٣ ذاتها يقول عن هشام بن عبد الملك: «كان يحبُّ وهو منعزل في قصره سماع صلوات المسيحيِّين وقراءتهم في أعيادهم الدِّينيَّة المقامة في الكنيسة الملاصقة للقصر، ويأنس بمحادثة بطريركهم (أثناسيوس اليعقوبي) مردِّداً له: أشعر بانشراح الصَّدر عندما تباشرون بتلاوة صلواتكم اللِّيلية، حتَّى إنِّي أنسى هموم الحكم كلَّها، ولا أتأخر عن الاستمتاع بنوم هادئ عذب مجدّد للقوى، كان هشام (٦٩٠-٧٢٣م) يحبُّ البطريرك ويجود بسخاء على كنيسته».

أين توثيق ومصدر هذا الكلام؟ خيال الإكسرخوس.

* * *

وقال في الصَّفحة ٩٤:

«وتشمل صلاة الجمعة الرَّسميَّة خطاباً يفرضه التَّقليد على الرَّئيس أي الملك أو من ينوب عنه، وهذه كانت طريقة الأُمويين المستمرة».

ليست هنالك صلاة الجمعة الرَّسميَّة، وصلاة الجمعة غير الرسميَّة، إنَّها فريضة تسبقها خطبة، لا تقليداً، بل ديناً وعقيدة، وهي طريقة المسلمين كلِّهم المستمرة.

* * *

وجاء في الصَّفحة ٩٥:

القصَّاصون والوعاظ الشَّعبيُّون، الرُّواة المتجوِّلون - وهم غالباً أتقياء جداً - «فيتملَّقون ميل الشَّعب إلى الخوارق، ويحدِّثونه عن (أعمال) الله».

الخوارق، وعجائب العذراء، معروفة عند الإكسرخوس، الصَّفحة ٨٧.

وفي الصَّفحة ذاتها: «وأخيراً، فإنَّ الاحتكاك اليومي والمسالم للدِّيانتين المسيحيَّة والإسلاميَّة المتعارضتين من أوجه كثيرة، قد حمل ذوي الألباب المفكِّرة من كلا الطرفين على طرح أسئلة عديدة، نتج عنها نقاش، فطبَّق مفكِّرو الإسلام التَّحليل العقلي على

محتوى القرآن العقائدي، وعلى التقاليد، وتوقَّفوا خصوصاً عند القضايا اللَّاهوتيَّة، مثل حريَّة الإنسان وجوهر الله وصفاته».

لا تعليق، كي لا نجرح مشاعر أحد، ولست أدري من يحتاج إلى التحليل العقلي[1]؟!

وحينما ألقى (قداسة) البابا بِنديكتُس السَّادس عشر محاضرته في جنوب ألمانية يوم الثلاثاء ١٢/٩/٢٠٠٦م بجامعة ريغينسبورغ، وهاجم بها الإسلام ونبيَّه بالاسم، وقال: انتشر الإسلام بالسَّيف، وهو دين عنف، وما جاء به محمد لا يتقبَّله العقل، كتبت له كتيباً نشر باللُّغتين العربيَّة والإنكليزيَّة، وتسلَّمته السَّفارة البابويَّة بالبريد المسجل، وأعلمتني هاتفياً باستلامه، وكلَّف مطران بالرَّد، وكلَّمته مرَّتين، ولم يصلني - وبعد مرور سنتين على استلام كتابي - أيُّ ردٍّ، وهذا لا يهم، لأنَّ عدم الجواب جواب، ولو وجدوا إجابة

(١) الحوار دائماً، وحوار مع مستشرق ٦٣-١٧٣.

لكتبوها، ولكن مؤتمر كولورادو التبشيري الذي انعقد في ١٥تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٨م يجيب قائلاً:

الحقائق العلميَّة صدمت المعتقد المسيحي، والإسلام هو أكثر النُّظم الدِّينيَّة المتناسقة اجتماعيّاً وسياسيّاً، مع البساطة والوضوح[1].

وعن (موقف الدِّمشقي من التَّوسع الإسلامي) يقول في الصَّفحة ١١٥:

«لم يعد المسلمون ذلك الشَّعب العائش في حيِّزٍ ضيِّق في شبه جزيرته، وأراد الإفلات منه ليستولي على مجال حيوي أكبر، وها هو بعد مئة سنة من انتشاره خارج الجزيرة العربية، وقد أصبح ديانة تفرض عقيدتها على شعوب الأقاليم المفتوحة، استطاع الإسلام الأوليُّ أن يستميل إليه في بدء الأمر عطف بعض فئات من الكنائس المسيحيَّة التي ساعدته على الاستيطان وتنظيم أُموره، ولكن إسلام منتصف القرن الثَّامن

(١) الإسلام وكفى، فصل: لا يا (قداسة) البابا ٢١١.

المتعصِّب والمتصلِّب فَقَد تعلَّق المسيحيِّين السُّوريين والقبائل المسيحيَّة به».

ثمّ يذكر الإكسرخوس أنَّ يوحنا الدمشقي لن يُسَرَّ بانتشار الإسلام واتِّساع رقعته.

خرج المسلمون من جزيرتهم يحملون رسالة للنَّاس، ولو أرادوا مجالاً حيوياً أكبر، لكانت العراق تكفيهم، أو بلاد الشَّام تكفيهم، أو مصر تكفيهم.

«وقد أصبح [الإسلام] ديانة تفرض عقيدتها على شعوب الأقاليم المفتوحة»، رمتني بدائها وانسلَّت.

شارلمان حارب السَّكسون ثلاثاً وثلاثين سنة بغاية العنف، وذروة الوحشيَّة، حتَّى أخضعهم وحولهم قسراً بالسَّيف إلى الديانة المسيحيَّة على يد (القدِّيس) ليودجر، ويليهاد.

ونشر الملك كنوت المسيحيَّة في الدِّنمارك بالقوَّة والإرهاب.

وفُرِضَت المسيحيَّة في روسية على يد جماعة اسمها: (إخوان السَّيف)[1].

وعلى يد فلاديمير دوق كييف (٩٨٥ - ١٠١٥م)، الَّذي يُضرب به المثل في الوحشيّة والعنف والشَّهوانيَّة.. والَّذي عُرِف بحمقه وطيشه أيضاً، تمَّ تعميد أهل دوقيَّة روسية كلِّهم مرة واحدة في مياه نهر الدَّنيبر[2].

وفي النَّروج، أمر الملك أولاف ترايجفيسون بذبح الذين أبوا الدُّخول في المسيحيَّة، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم.

أمَّا في أمريكة، فقد حلَّت الإبادة - باسم الكنيسة - ضد الهنود الحمر، وقضي على حضارة المايا، والآزتيك، والأنكا، وهذا ما جرى أيضاً في أُسترالية حيث سُحق شعب الأبورجِيين.. إلخ.

ولم يذكر الإكسرخوس اسم شعب واحد فرض عليه الإسلام.

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ٣٠، السِّير توماس آرنولد.

(٢) تاريخ أوربة في العصور الوسطى ٤٠٧، فيشر.

ولم يسر يوحنا الدِّمشقي بانتشار الإسلام واتِّساع رقعته، عجيب! مع أنَّ الجيش المسيحي السُّوري العربي - بادعائه - هو الَّذي نشره براً وبحراً!

* * *

وفي الصَّفحة ١٢٩ يدَّعي:

«وفي سنة ٦٤٣م حرَّض يهود أورشليم عمراً [هكذا] ضد الصَّليب المرفوع على قمَّة جبل الزَّيتون، فآل تصرُّفهم إلى تدمير كلِّ الصُّلبان المرفوعة في فلسطين».

خيال تنقضه (العهدة العمريَّة)، ويرفضه التَّوثيق.

* * *

وجاء تحت عنوان (تأثير الدِّمشقي في فكر المسلمين) في الصَّفحة ١٤٥:

«لقد شمل تأثير يوحنا الدِّمشقي الإسلام، فقد دفع يوحنا التَّيَّار القدري والمعتزلي، وأقدم اعتراض على حتمية مصير الإنسان مصدره الإسلام السُّوري، وقد

أخذ علماء الإسلام القدماء عن لاهوتيِّي محيطهم المسيحيِّين ما حملهم على الشَّكِّ في حتميَّة مصير الإنسان المطلقة، وقد شغلت هذه النُّقطة العقائديَّة فكر لاهوتيِّي الكنيسة الشرقيَّة، وكانت دمشق في عهد الأُمويِّين مركز الإسلام الفكري والبحث عن القدر والمقدَّر، ومنها امتدَّت هذه الحركة الفكريَّة إلى محيط أوسع».

عبارة واحدة تنقض ما يقرِّره الإكسرخوس جوزيف نصر الله، ذُكِرت في عدَّة مصادر، فالسِّير توماس أرنولد يذكر في كتابه (الدَّعوة إلى الإسلام ١٠٣) عند حديثه عن يوحنا الدِّمشقي: «إنَّ صياغة هذه الرَّسائل في قالب الحوار، وكثرة التَّكرار في مثل قوله: «إذا سألك العربي»، «إذا قال لك العربي.. فأجبه»، إنَّ هذه العبارات تعطي مظهراً يكاد يقرب من الحقيقة ويجعلها تبدو كما لو كان المقصود بها تزويد المسيحيِّين بإجابات حاضرة ردّاً على الاعتراضات المختلفة التي كان جيرانهم المسلمون يوجِّهونها إلى العقيدة المسيحيَّة.

المسلمون يطرحون تساؤلات في حوار، ويوحنا الدِّمشقي هو المتلقي المدافع، «لقد شمل تأثير يوحنا الدِّمشقي الإسلام» تظهر زيفها عبارة واحدة: «إذا سألك العربي»!.

ويتابع في الصفحة ١٤٦ و١٤٧ قائلاً: «لقد انتصر الإسلام بقوَّة السِّلاح والسَّيف[1]، وبقي أن يعطي براهين منطقيَّة على وجوده وتفوّقه حيال الدِّيانات القديمة القائمة المسيحيَّة واليهوديَّة والمانويَّة، ولقد أرغم جدل الدِّمشقي ومن سار على خطاه مفكِّري الإسلام على أن يطَّلعوا على الفلسفة الأرسطوطاليسيَّة، ويطبقوا على معطيات الوحي الإسلامي مبادئ منطقيّة بوسعها أن تشرح توافق العقل والإيمان، أو معارضته، وحريّة الإنسان، وتمييز صفات الله، والخلق أو أزليَّة كلمة الله في القرآن،

(١) وقد تناولنا الرَّدَّ على انتصار الإسلام بقوَّة السِّلاح والسَّيف قبل صفحات، لقد انتصر المسلمون في فتوحاتهم ومعاركهم الحربيَّة بالسَّيف، ولكن الإسلام انتشر بالدَّعوة والحوار: «إذا سألك العربي، إذا قال لك العربي»، فلا إكراه في الدِّين.

وقيمة التقاليد التي يرتكز عليها الإسلام، لقد كان الدمشقي في أساس تكوين اللاهوت، أو علم التَّوحيد الإسلامي».

«وهكذا كان يوحنا (دفَّاق الذَّهب) على نحو غير مباشر في أصل الحركة الفلسفيَّة الإسلاميَّة، ودرس العقيدة الإسلامية درساً منطقياً، وقد أثر تأثيراً عظيماً في المجادلين المسلمين، قال آسِنْ بلاسيوس: إن فلسفة الإسلام ولاهوته مرتبطان فعلياً بالفكر الكلاسيكي والمسيحي، وكان يوحنا الدِّمشقي وتلميذه أبو قرَّة، وهما آخر أضواء اللاهوت البيزنطي مدرِّبي اللاهوتيين - علماء التوحيد - المسلمين في الشرق ومعلميهم».

ليته ذكر واحداً أو اثنين من علماء المسلمين، أخذ عنه (اللَّاهوت) علم التَّوحيد، فكلُّ عالم من علماء المسلمين يذكر في سيرته أساتذته ومن أخذ عنهم!

من أخذ عنه؟ مجاهد بن جبر المخزومي ١٠٤هـ، أم شعبة بن الحجَّاج ١٦٠هـ، أم سفيان بن عيينة

١٩٨هـ، أم الإمام مالك بن أنس -١٧٩هـ، أم إبراهيم بن سيار النظام -٢٣١هـ، أم أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي -٢٣٨هـ، أم أبو الحسن الأشعري -٣٢٤هـ، أم أبو المنصور الماتريدي -٣٣٣هـ، أم محمد بن الطَّيِّب الباقلاني -٤٠٣هـ، أم عبد الملك بن عبد الله الجويني -٤٧٨هـ، أم أبو حامد الغزالي ٥٠٥هـ، أم ابن رشد ٥٩٥هـ؟

ليت المؤلِّف عاد إلى دور المسلمين في تكوين الفلسفة الأُوربية بأمانة، فحينما بدأت عقول ممتازة في قراءة آثار الفلاسفة المسلمين بدأت النهضة الحقيقيّة للفكر الفلسفي الأوربي، أولهم ألبرتس الكبير (١٢٠٧ - ١٢٨٠م)، الَّذي درس ما تُرجم إلى اللاتينيَّة من مؤلَّفات الفلاسفة العرب دراسة عميقة، وتوما الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م)، الَّذي لم يكن يذكر مصادره خوفاً من السُّلطات الدِّينيّة، والحركة الرُّشديَّة - أتباع ابن رشد الأُوربيين - الذين حوربوا واضطهدوا من جانب الكنيسة، وعلى الرَّغم من ذلك نمت الرُّشديَّة وانتشرت، وكسبت الكثير من الأنصار.

كتابان ذوا أثرٍ كبير في أُوربة في العصر الوسيط:

١- مشكاة الأنوار لأبي حامد الغزالي.

٢- وفصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتِّصال لابن رشد[١].

«لقد كان الدِّمشقي في أساس تكوين اللَّاهوت أو علم التَّوحيد الإسلامي»، فاقد الشيء لا يعطيه.

* * *

وفي الصَّفحة ١٥٤ يورد نصّاً لابن عساكر:

«سرجون بن منصور الرُّومي، كاتب معاوية وابنه يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، ذكره أبو الحسن الرّازي في تسمية كتَّاب أُمراء دمشق، وذكر أنه كان نصرانياً فأسلم، وهو الذي ينسب إليه حير - بستان - ابن سرجون عند باب كيسان، ويقال له سرجة، وله عقب».

---

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأُوربي ٢٣٢، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، ودار القلم - بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

وفي الصَّفحة ١٥٥:

قال ابن شاكر الكتبي (-٧٦٤هـ/ -١٣٦٣م): «إنَّ حَيرسرجون داخل باب كيسان؛ يطلق عليه اسم سرجون بن منصور الرُّومي، كاتب معاوية ويزيد وعبد الملك، فكان سرجون في أوَّل الأمر مسيحيّاً، ثمَّ انتحل الدِّين الإسلامي على يد معاوية، فحير معناها بستان».

كان الكتَّاب في العهد الأُموي على أصناف، منهم كاتب للرَّسائل، وآخر للخَرَاج، وثالث للجند ورابع للقضاء والمظالم[1]، ولقد ازدادت أعدادهم، وازدادت اختصاصاتهم مع ازدياد عدد الدَّواوين، إلا أنَّ أرفعهم مكانة صاحب ديوان الرّسائل، وكان يُدعى أحياناً في خلافة بني أميَّة بمتولِّي ديوان الرَّسائل، أو صاحب ديوان المكاتبات، لأنَّه كان مؤتمناً على أُمور الدَّولة وأسرارها[2]، فينظر في أمر

(١) الوزراء والكتَّاب ٥٤.

(٢) صبح الأعشى ١/ ١٠٣.

البريد ومتعلَّقاته، ويقرأ الكتب الواردة على الخليفة[1].. أشهرهم محمد بن يزيد الأنصاري زمن عبد الملك، وعبد الحميد الكاتب أواخر دولة بني أُميَّة.

وكان يتولَّى شؤون الخراج في الشَّام - كما هو الأمر في العراق ومصر وخراسان - موظَّفون من أبناء المنطقة يتقنون لغتها، بالإضافة إلى إلمامهم بالعربيَّة، ويشرف على أولئك الموظَّفين رئيس يعرف بكاتب الخراج، أو صاحب الخراج، ويتمتَّع بمنزلة عالية لدى الخليفة والأُمراء، وقد اشتهر في الشَّام سرجون بن منصور الرُّومي، الذي كان مسؤولاً عن دواوين الخراج كلِّها بالشَّام[2].

ثمَّ أصبح ابنه منصور المتولِّي لأمر الخراج، حتَّى نقل سليمان بن سعد كاتب الرسائل الدِّيوان إلى العربيَّة، وذلك حينما رأى عبد الملك بن مروان من

(١) الشَّام في صدر الإسلام ٢٣٦.

(٢) تاريخ خليفة بن خيَّاط ١/ ٢٧٦، خطط المقريزي ١/ ١٨٢.

منصور توانياً، وولاه عبد الملك جميع دواوين الشَّام، ولم يزل سليمان بن سعد على ذلك حتَّى خلافة عمر بن عبد العزيز[1].

فمنصور بن سرجون على ديوان الخراج قبل تعريبه فقط.

والتَّعريب أيَّام عبد الملك بن مروان يدل على سماحة الفاتحين من جهة، لوجود منصور وأمثاله، وعلى ضرورة إعطاء الدَّولة هويتها (الدَّوليَّة)، وهي الإسلام الذي احتضن كتابه الكريم (العربيَّة) بشكل معجز، فالإسلام والعربيّة وجهان لعملة واحدة.

«وكانت اللُّغتان - العربيَّة والآرامية - عضوين في أُسرة واحدة، لم يبعد الزَّمن في التَّفريق بينهما، ولم يكن هناك إلَّا الرُّوم وحدهم لا يتمثلون هذه اللُّغة، وكانوا بالقياس إلى العرب والآراميِّين قلَّة حاكمة، وكان المسلمون في شروط الصُّلح قد نفوهم عن

(١) أدب الكاتب ١٩٣، الصُّولي، تحقيق محمد بهجت الأثري، المطبعة السَّلفية، القاهرة ١٣٤٤هـ.

البلاد، وأمنوهم على الخروج، وسمحوا لمن شاء أن يبقى معهم، ولذلك لم يكن في هذا الاتِّصال اللُّغوي الذي نشأ عن التقاء المسلمين بالسُّكان الأصليِّين في بلاد الشَّام عنصر غريب متنافر، وكان من الطَّبيعي أن ينتهي الصِّراع بين اللُّغتين العربيَّة والآرامية بتغلُّب العربيَّة، فقد كانت لغة الدِّين، ولغة الدَّولة معاً، وكانت لغة فريق من السُّكان، وكان يلجأ إليها الَّذين يسلمون والَّذين يتعرَّبون»[1].

وفي الصَّفحة ١٥٨ يقول الإكسرخوس:

«ومن مؤلَّفات القدِّيس الدِّمشقي محاورة مع مسلم وحرِّيَّة الإرادة البشريَّة، وهي بمثابة دفاع عن المسيحيَّة، ومنها أيضاً كتاب لإرشاد المسيحيِّين في محاورتهم المسلمين، والرَّاجح [دون دليل أو توثيق، إنَّه يرجح] أنَّ يوحنا نفسه باحث في كثير من هذه المسائل في حضرة الخليفة».

(١) الإدارة في العصر الأموي ١٥٤، عن المجتمعات الإسلامية ٦٨ و٦٩، د. شكري فيصل.

وأخيراً زلَّ قلمه ليدينه، ويبطل ادّعاءاته المفضوحة، لقد كان موقفه الَّذي لا يحسد عليه دفاعاً لا اقتحاماً «وهي بمثابة دفاع عن المسيحيّة»، والدُّخول في الإسلام، لم يكن «بقوَّة السِّلاح والسَّيف»، بل صحَّة العقيدة، وسماحة الفاتحين، وحوار المنطق والحجَّة.

خَاتِمَةٌ

سؤال جال في خاطري وأنا أُنهي ردِّي هذا: لماذا لم يحقِّق التَّغلبيُّون المسيحيُّون هذا المجد، وهذه القفزة النَّوعيَّة قبل مجيء العرب الفاتحين؟ لماذا لم نسمع بواحد منهم من قبل؟

إن الإكسرخوس جوزيف نصر الله كتب سمومه، وهو لا يسوق أيَّ دليل نقلي أو عقلي، ولا يرجع إلى مصادر متعارف على صحتها، فألقى الكلام جزافاً، معتمداً على خيال خصب، استقرَّت فيه أهدافٌ ومعان سابقة، ولم يكن عنده اطلاع باحث يعتمد ركناً ركيناً من أُسس التَّأليف: «إن كنت ناقلاً فالدِّقَّة، وإن كنت مدَّعياً فالدَّليل».

لقد حاول أن يجد سنداً لادعاءاته عند لامنس، وابن العبري، وميخائيل السُّوري، وفيليب حتِّي، والأصفهاني، وعند مؤرِّخ سرياني مجهول، فإذا كتابه

عرض سطحي جداً، مليء بالأكاذيب والافتراءات والاختراعات، ليست لها أيُّ قيمة علميَّة، ولا حتَّى دراسة مبسَّطة ابتدائيَّة من غير متخصِّص، لأنَّه مزجه بوجهة نظر مسبقة مليئة بكراهيته للإسلام وأهله، في غلٍّ منقطع النَّظير، فأساء لنفسه، وأساء لقرَّائه حين لم يقدِّم الحقيقة التَّاريخيَّة الموثقة المدعومة بالمصادر الصحيحة، وأساء لأُمته العربيَّة، والتي جعلها: بدو رحَّل، وسذَّج من أبناء الصَّحراء، وقراصنة.. كأنَّهم لم يبنوا حضارة خالدة.

وراح يبرِّر للرُّوم البيزنطيِّين انهزاماتهم أمام الفاتحين: إرهاق، جيش على عجل، وبسرعة وعدم تجانس، قلَّة التدريب العسكري، فأساء للعصر الأُموي وفتوحاته وقضائه وإدارته، مع أنَّه يقول: فألَّف السُّوريون المسيحيُّون العرب كوادر الجيش الأُموي، في البرِّ والبحر، ولبثت سورية بلداً مسيحياً، وحافظت على طابعها كبلد مسيحي حتَّى نهاية الحقبة الأُمويَّة، إذن إلى من توجِّه التُّهم والافتراءات والأكاذيب، ومن تنتقد يا دفاق الذَّهب؟

واختتم بما قلت في المقدِّمة:

إنِّني أوجِّه ما جاء من تصويبات وردود في هذا الكتاب لما ورد في كتاب (منصور بن سرجون التغلبي المعروف بالقديس يوحنّا الدمشقي، أو الفتح الإسلامي السَّهل لمدينة دمشق وأسبابه)، تأليف الإكسرخوس جوزيف نصر الله، وإلى كلٍّ من يحاول نشر هذه الأفكار المشوهة المفترية على تاريخنا العربي، دون دليل أو برهان، ولا أتوجه في خطابي إلى المسيحيِّين الموضوعيِّين، الذين لا يرضون بمثل هذه الكتابات التي تسيء إليهم أوَّل ما تسيء، وفتح باب الأُخوة والتَّسامح، والعيش المشترك بهناءة وطمأنينة، والاحترام المتبادل، والاعتراف بالآخر والحوار الهادئ العلمي العقلاني أَوْلى وأجدى.

فمن كتب الكتاب المذكور، ماذا قدَّم لأُمَّتنا من حقائق؟

والذي ترجمه ويحاول نشره، ماذا قدَّم لأمَّته من فائدة تذكر؟

وعلى كلٍّ حال، هكذا يكتبون تاريخنا!

الدكتور شوقي أبو خليل
دمشق - سورية
ص.ب ٦٢٢٢
Shawki@fikr.com

المصادر والمراجع

- الأخبار الطِّوال، أبو حنيفة الدِّينوري، تراثنا، تحقيق عبد المنعم عامر، ومراجعة د. جمال الدِّين الشَّيَّال، انتشارات أفتاب، طهران.
- إدارة الولايات في العصر الأموي، د. نجدت خماش، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- أدب الكاتب، محمد بن يحيى الصُّولي، عني بنشره: محمد بهجت الأثري، نظر فيه محمود شكري الآلوسي، دار الكتب العلميَّة، بيروت (د.ت).
- أسْد الغابة في معرفة الصَّحابة، عزُّ الدين بن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري، طبعة دار الشَّعب، مصر.
- الإسلام خواطر وسوانح، الكونت دي كاستري، مطبعة السَّعادة، القاهرة.
- الإسلام وكفى، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
- الإصابة في تميز الصحابة، شهاب الدِّين العسقلاني، دار الفكر، بيروت (د.ت).
- الأعلام، خير الدين الزُّركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م.
- البداية والنِّهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، شرحه محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢ (د.ت).
- تاريخ أُوربة في العصور الوسطى، هـ. أ. ل فيشر، دار المعارف بمصر، ط٣ (د.ت).
- تاريخ البحريَّة الإسلاميَّة في مصر والشَّام، د. أحمد مختار الصاوي، د. السيد عبد العزيز سالم، طبعة ١٩٧٢م.
- تاريخ خليفة بن خيَّاط، أبو عمرو خليفة بن خيَّاط اللَّيثي العصفري، دار القلم ومؤسَّسة الرِّسالة، ط٢، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- تاريخ الرُّسل والملوك، ابن جرير الطبري، دار المعارف بمصر، ذخائر العرب ١٩٦٠م.
- تاريخ مختصر الدُّول، غريغوريوس ابن العبري الملطي، (دون أيِّ معلومة توثيقيَّة).
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ابن عساكر، عناية عبد القادر بدران، المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن وهب اليعقوبي، دار صادر، بيروت (د.ت).
- الحوار دائماً وحوار مع مستشرق، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، طبعة ٢٠٠٦م.
- الخَراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (القاضي)، الطبعة السَّلفيَّة ومكتبتها، القاهرة، ط٤، ١٣٩٢هـ.
- خطط المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي

الدِّين أحمد بن علي المقريزي، دار صادر، بيروت (د.ت).
- الدَّعوة إلى الإسلام، السِّير توماس آرنولد، مكتبة النَّهضة المصريَّة، ط٢، ١٩٥٧م.
- دمشق ٩٣ للهجرة الشمس في ضحاها، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.
- دَوْر العرب في تكوين الفكر الأوربي، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، دار القلم - بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
- دور الكتب العربيَّة العامَّة وشبه العامَّة لبلاد العراق والشَّام ومصر في العصر الوسيط، د. يوسف العش، ترجمة: د. نزار أباظة ومحمد صبَّاغ، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩١م.
- الدَّولة العربيَّة وسقوطها، يوليوس ولهاوزن، ترجمة د. يوسف العش، مطبعة الجامعة السُّورية، دمشق، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
- السَّيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، وليد الأعظمي، دار الوفاء، المنصورة - مصر، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الشَّام في صدر الإسلام، د.نجدت خماش، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، تراثنا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصريَّة العامة للتأليف والترجمة والطِّباعة والنشر، القاهرة (د.ت).
- الطَّبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد الزُّهري، دار صادر، بيروت، ١٩٥٨م.
- عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري، نسخة مصوَّرة

عن طبعة دار الكتب، المؤسَّسة المصريَّة العامَّة للتأليف والترجمة والطِّباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د.ت).
- فتح أمريكة، غرفتيان تودوروف، ترجمة بشير السّباعي، دار سيناء.
- فتوح البلدان، أبو الحسن البلاذري، المكتبة التِّجارية الكبرى، مصر ١٩٥٧م.
- فتوح مصر وأخبارها، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، بريل، ليدن ١٩٣٠م.
- الكامل في التَّاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشَّيباني المعروف بابن الأثير الجزري، طبع إدارة الطِّباعة المنيرية - القاهرة ١٣٤٨هـ.
- محاكم التَّفتيش، د. علي مظهر، طبعة ١٩٤٧م.
- مختصر تاريخ دمشق، ابن عساكر، اختصره محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، دار الفكر، دمشق (١٩٨٤ - ١٩٨٨م).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين بن علي المسعودي، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ/ ١٩٧٧م.
- موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت (د.ت).
- ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال، محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، تحقيق علي محمد الجباوي، دار الفكر، بيروت (د.ت).
- ينابيع المسيحيَّة، خوجة كمال الدين، تعريب إسماعيل حلمي البارودي، لجنة التحقيق، لندن ١٩٩١م.

THIS IS ISLAM

THIS WAY THEY WRITE OUR HISTORY

Hākadhā Yaktubūn Tārīkhanā

Dr. Shawqī Abū Khalīl

ليس التاريخ حوادث تحكى.. ولا قصص تسرد..
وانما هو علم خطير، قد يُسقِط المؤرخ أو
الباحث ما في نفسه عليه، ويفسره التفسير الذي
يريد، يلفته إلى الوجهة التي يلوي بها عنقه إليها.
هذا البحث ردّ على كتاب في تاريخ الحقبة
الأموية، ألّفه الإكسرخوس جوزيف نصر الله،
يطلع فيه بآراء لا يعتمد فيها على توثيق، ولا على
رواية، ولا على مصادر معتمدة، ويرى أن سورية
لبثت بلداً مسيحياً بعد الفتح الإسلامي،
حتى نهاية الحقبة الأموية..
فما حقيقة ذلك على محك البحث التاريخي العلمي؟
هذا ما يناقشه الكتاب.


ISBN 995351164-0
9 789953 511641